رواية

لي حبيب

ياسمين فريد

عالم الكتب للنشر والتوزيع

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

لي حبيبة

رواية

ياسمين فريد

تَشكِيل للنَشر والتَوزِيع

Email publish@tashkeel- publishing.com

Website www.tashkeel-publishing.com

Mobile 201006250473 FB/Tashkeeel

I.S.B.N : 978-977-6555-62-4

رقـم الإيـــداع: 29196/ 2017

تصميم الغـلاف : أحمد فرج

الإخراج الداخلي : ضياء فريد

المـديـــر العــام : سيد شعبان

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحــبه للمساءلة القانونية، والآراء والـمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

الإهداء..

إلى من جمعتنا بهم الصدفة في يوم ما، وظلوا على عهدهم معنا، لم ينقضوه ولم يرحلوا...

أنا مُنهمك.. مُنهمك تمامًا في عملي، لا وقت للراحة، لا وقت للنوم، لا وقت للتنزه، كل النساء في عيني لا شيء، لا واحدة منهن تمكنت من اللحاق بقلبي، لا واحدة فعلت بي ما يُفعل بالرجال، ربما العيب فيّ، رجل مثلي بلا مشاعر، أو ربما العيب فيهن.. نساء بلا نكهة!!

ولكن.. التقينا مُصادفة، حركت المياه الراكدة بي، اجتذبتني ناحيتها دون أدنى قرار مني، نظرة من عينيها السوداويتين قادرة على أسر قبيلة من الرجال.. فأسرتني، علمت حينها.. كيف صار «**قيس**» مجنونًا؟ ولماذا رفع «**نزار**» قدر النساء إلى حد العبودية؟ كان حُبنا لا يعرف العقل، لا يعرف المنطق، وكأننا اثنين فقط على الأرض، والباقي ما هم إلا ظل هادئ أو أشباه بشر.

التقينا مُصادفة.. لنكمل النقص الذي يكمن في حياتنا، لنذق معًا بهجة الأيام، كانت النور في طريقي، وكنت الأمل في طريقها، امرأة مثلها غير قابلة للنسيان!!

أحببتك يا امرأة.. وكفى.

أنا مُختلفة.. مُختلفة تمامًا، هكذا أسمعهم يقولون، كل النساء على الأرض.. خُلقن من أجل الرجال، لكن نظرتي ليست كمثلهن، فأنا خُلقت من أجل أحلامي وطموحاتي، تلك الأحلام التي لا تنتهي بعد طالما حييت، ربما أكون مُخطئة بحق نفسي والأخريات على صواب من أمرهن، واختلافي عنهن ما هو إلا تعب بلا نتيجة، لكنني سأظل مُختلفة هكذا، فهذه طبيعتي وسأتحمل عواقبها بمفردي.

ولكن.. التقينا مُصادفة، وصار جزءًا من أحلامي وربما كلها، علمت معه أن للحب عذاب يُشقينا، وعلى قدر عذابه.. نتذوق حلاوته، أدركت بين يديه قيمتي وقيمة ذاتي، وصار الروح لجسدي..

التقينا مُصادفة بفعل القدر، ومرت المواقف والصدف.. واحدة تلو الأخرى، جمعتنا الأماكن دون موعد، واتفقنا على الحب دون اتفاق، كُلما ابتعدنا.. اقتربنا أكثر، وكُلما رحلنا.. عُدنا، رجل مثله غير قابل للنسيان!!

أحببتك يا رجل.. وكفى.

ما قبل الصُدفة الأولى.

أنا رجل أعشق العمل التطوعي وتقديم المُساعدة ويد العون لكل مُحتاج، عملت في البداية كعضو مبتدئ بجهودي الذاتية في مؤسسة «**الأمل**» الخيرية بمحافظة الجيزة، أقدم المساعدة على قدر استطاعتي، كإمداد الفقير بالطعام والكساء، ثم تطور نشاط الجمعية من جهود أعضائها الذاتية إلى جهود بعض

أهالي المنطقة المقتدرين لمعاونة غير المقتدرين من جيرانهم، وقررت أن أتوسع أكثر في أنشطة الجمعية، واقترحت على «**صفية**» مؤسسة الجمعية ومديرتها، أن نُساعد أطفال القرية في التعليم وتحصيلهم الدراسي، وخاصة أني كنت أعمل مُدرسًا للغة العربية، وأخذت خطوة فعلية واتفقت مع مجموعة من زملائي بالمدرسة للعمل معي في الجمعية في الفترة المسائية على حسب ما يسمح به وقتهم كمدرسين متطوعين، دون مقابل أو أجر مادي، تكفينا دعوات الأهالي، هذه سعادتنا الحقيقية.

«**ربنا يبارك لنا في عمرك يا أستاذ أدهم، ربنا يجعله في ميزان حسناتك**».

أؤمن أن رسالتي في الحياة.. أن أرسم بسمة على وجه رجل فقير عندما يُطعم أهل بيته، أو أزرع أملًا بصدر أم قد وجدت ثمن علاج ابنها المريض، أو أشاهد فرحة طفل بكساء جديد وهو يقفز ويلعب.

ازداد عدد الأطفال المُتعسرين دراسيًا، ودخل الجمعية من المُتبرعين لم يكفِ كُل المحتاجين، اجتمعت بنا «**صفية**» لوضع خطة عمل نسير عليها؛ كي نصل إلى أكبر عدد من المُقتدرين ماديًا ولديهم الرغبة في المُساعدة والتصدق بجزء من أموالهم الخاصة.

كتبت إعلانًا ممولًا على صفحةِ الجمعية عبر وسائلِ التواصل الاجتماعي والانترنت، ووصلتنا تعليقات كثيرة تطلب كيفية التواصل مع جمعيتنا ورقم هاتفنا، كانت فرحتي لا توصف، فبدل من مساعدةِ طفل سوف نساعد عشرات في المقابل.

كنت اليد اليُمنى لصفية وثقتها بي بلا نهاية، أجلس جانبها على المكتب؛ كي أستقبل بيدٍ التبرعات لأصحابها المؤقتين وأنفقها بيدي الأخرى لأصحابها الحقيقيين.

وفي وقت قياسي صارت أنشطة الجمعية غير قاصرة على أهالي قريتنا فقط، بل امتدت أنشطتها وتبرعاتها إلى أهالي القُرى المحرومة بالمحافظة كلها، وكنت أطمح أن نصل إلى المحافظات الأخرى في كل أنحاء الجمهورية، وهذا بالفعل ما أسعى إليه.

قرأت خبرًا في جريدة.. مطلوب به مُنظمين ومُتابعين لمؤسسة تعليمية وهي مؤسسة غير هادفة للربح، تسعى للوصول إلى أكبر عدد من المدارس الفقيرة، وتقديم المُساعدات المالية لها من أجهزة ومقاعد وصيانة، أرسلت أوراقي عبر البريد الإلكتروني لديهم، ولم انتظر حتى ردهم، فلا وقت عندي لانتظار أي شيء في الحياة، وبعد يومين.. اتصل بي أحد مسئولي المؤسسة، وقال بنبرة سريعة: عندك مقابلة أستاذ أدهم بُكرة الساعة تسعة صباحًا.

لم أهتم لأمر المُتصل، فغدًا يوم مُمتلئ.. لدي حفل صغير مخصص للأطفال الأيتام بالقرية برعاية جمعية الأمل وكنت المُكلف بتنظيم الحفل من بداية شراء ملابس موحدة اللون لهؤلاء الأطفال حتى تسليم أهاليهم هدايا ومبالغ مادية، وأشياء أخرى قد تُسعدهم وتُعوضهم ولو قليلًا.

صباحًا، قُمت من مكتبي وكنت قد قضيت ليلتي في الكتابة إليها حتى النهار، أغزل حروفًا، أنسج كلماتٍ، أسطر أشعارًا وروايات، فأنا التوّاق لعينيها

والهارب، المُتعبد في محرابها والكافر، الزاهد بها عن العالم والطامع، الراكض في غاباتها والساكن، لكن.. أين هي؟!

سكبت الماء على وجهي سريعًا، وأخذت سيارتي حيث مدينة نصر قبل زحام البشر، وهناك رأيت محال ألعاب الأطفال مازالت مُغلقة، انتظرت في السيارة، وحينما كُنت أنتظر؛ تذكرت أنني لدي مُقابلة اليوم في تمام الساعة التاسعة في المؤسسة وكنت غير مُتحمس للذهاب، لكن لا بأس سأذهب الآن، فبيني وبين مكانها شارعين فقط، أستغل وقتي وأجري المقابلة لحين عمل المحلات.

المكان مُجهز بأغلى وأعلى التجهيزات من مقاعدَ، ومكاتب ومُكيفات وأجهزة حاسبات وأواني الأزهار والنوافذ الزجاجية اللامعة، عدد المُقدمين للعمل ليس بكثير، جلست بينهم أنتظر دوري ولا أنتظر، أسمع حديثهم غير مُشارك وغير مُتحمس، أنظر إلى هاتفي دائمًا، تسأل مُديرة المشروع المُتقدمين ويُجيبونها على الفور، أتابع في صمت وكأنني لست بينهم.

التفتت مُديرة المشروع ناحيتي وكانوا يُنادونها «**نور**» وقالت بتواضع شديد:

ـ عرّف نفسك.. وقدم لنا عرض سريع عن أهم الأنشطة المتوافرة حاليًا في مدارسنا الحكومية؟

ـ أدهم زين العابدين.. مُدرس لغة عربية للمرحلة الإعدادية، وعضو بأكثر من جمعية ومؤسسة خيرية، وأهم الأنشطة المتوافرة بمدارسنا حاليًا.....!

سردت لها إجابتي وتحدثت بطلاقة من أمري وبكل ثقة دون أي قلق، وكأنني بمفردي وسط هذا الكم، أردت أن أعبر عن وجهة نظري فيما يحدث في مدارسنا وأوجه القصور، وما أطمح إليه.

وأوقفني تصفيق الزملاء عن الحديث، ثُم أوقفت مُديرة المشروع تصفيق الزُملاء عندما قالت: أستاذ أدهم.. أهلًا بيك زميل عزيز في مؤسسة «**هيا نتعلم**».

انصرفت من المؤسسة وقد تبدّل حالي على عكس ما كنت عليه عندما ذهبت، وأصبحت على قدر عالي من التحمس للعمل مع هذه المجموعة ومديرتها الشابة التي تصغرني بثلاث أعوام تقريبًا والتي كانت على قدر عالي من التواضع والخُلق والاحترام، وذهبت إلى محال لعب الأطفال.. واشتريت ما أريد.

بدأ الحفل فور قدومي الجمعية، وجلست بين الأطفال وأصغرهم جلس على منكبي، صفقنا وغنينا ولعبنا وكنت كطفل مثلهم، وقدمت صفية الهدايا بعد انتهاء فقرات الحفل ومسابقات اللعب.

انتهى الحفل وذهبت بعدها للمقهى الذي أجلس عليه دائمًا برفقة صديقي «**محمد كامل**»، نلعب الشطرنج كعادتنا المسائية والخاسر سيغرم ثمن فنجانين من القهوة، وان كان الوقت ملكنا.. لعبنا ثانية!!

لكن.. اتصلت إيمان زوجة «**محمد**» وطلبت منه أن يعود للبيت حالًا، لأنها تفتقده كثيرًا.. وكان رده عليها « **وأنتِ كمان**»!!

ورأيت في عيني صديقي لمعة غريبة، وكأن بوجهه نور يشرق أثناء حديثه مع زوجته، واندهشت وتساءلت: «**هل هناك زوجان على هذا الكوكب سُعداء الآن؟**».

غمزت لصديقي بخُبثٍ وبنصف عين وقُلت: طبعًا شطرنج «**أم زياد**» أحسن؟!

ضحك «**محمد**» وبدأ في سرد قصة عشقه للمرة الألف، عندما تقابلا بأحد الرحلات الجامعية، وكانت تُريد إيمان أن تشرب حينها، لأن زُجاجتها قد فرغت تمامًا، سمعها محمد وهي تطلب الماء من صديقتها المُقربة، فقام من مكانه ليظهر رجولته وشهامتة من خلال شربة ماء، وقدم لها زجاجته ومن هُنا بدأ التعارف وانتقل بالتدريج إلى نظرات ثم إعجاب ثم حب ثم اعتراف فخطوبة فزواج، وهكذا عاش محمد قصة قلبه وكان القدر حليفه، فمن أحبها صارت من نصيبه، وما تمناها في حلمه صارت بواقعه، فما أجمل أن يصير الحبيب شريك حياة، وتكون الأمور يسيرة إلى هذا الحد دون تعقيدات البشر والظروف والقدر!

وفي كل مرّة يتحدث محمد عن إيمان كأنها أول مرّة، بنفس المشاعر والحماسة والانفعالات.. حبهم كان مُتجددًا على الدوام لا يعرف الملل أو الروتين.. أساسه الاحترام والتقدير، أتمنى حقيقي لهما دوام السعادة وأتمنى لنفسي مثليهما.

انصرف الصديق وجلست حتى مُنتصف الليل على المقهى مع ورقتي وقلمي وصورتها التي رسمتها بخيالي، أنفها الصغيرة، عينيها السود، شعرها.. خصرها.. ضحكتها.. كل ما بها، أكتب إليها كعادتي في أجندة خواطري!

إليكِ.. بالرغم أنني لازلت لا أعرف عنكِ شيئًا ولا حتى اسمك، أنتظرك وأخشى أن يكون انتظاري بلا وصول، أو يظل لقاءي بكِ مُستحيلًا، وتأخذني الحياة بين عجلاتها فلا أنا ميت ولا أنا حيّ.. هلا أتيتِ!!

أنا امرأة لا حد لأحلامها ولا سقف لطموحاتها، كُلما فرغت من تحقيق حلم، فكرت في آخر، أعمل أكثر من شيء في نفس الوقت، لدي يقين تام أن العُمر قصير جدًا لإضاعته في النوم أو في مُحادثات هاتفية لا فائدة منها، أساسها النميمة والعائد الوحيد منها جلب السيئات، مُقصرة جدًا في زيارات الأهل وحضور المناسبات أيًا كانت، أتلقى عتباً كثيراً من الزُملاء، وأعترف لهم أني مُقصرة في السؤال عليهم، لكن مع الوقت.. اعتاد من حولي على طبعي، وأدركوا أن بُعدي وتجنب أحاديثهم ليس غرورًا مني ولا هُم تافهون ولكن كل منا يرى الحياة من زاوية مُختلفة ويفنيها حسبما يرى، وببساطة شديدة أنهم يمتلكون الوقت لهذا وأنا لا وقت لديّ، أحسدهم على فراغهم ويحسدونني على انشغالي.

هُناك من يُشجعني ويمدحني، وهُناك أيضًا من يُحبطني ويقلل من عزيمتي وهناك من أرى داخلهم حقد وربما استهزاء من أمري، وهناك من يدعو لي بالتوفيق.. ولكنني أركض بالحياة ولا أبالي لأحد منهم.

في الصباح أعمل مُدرسة تربية موسيقية، وبعد الظهيرة.. باحثة ماجستير في قسم صحة نفسية بكلية التربية، واخترت موضوع بحثي عن بعض مُشكلات العلاقات الزوجية وأثرها على الأبناء في جميع اتجاهات حياتهم وميولهم، وعلى تحصيلهم الدراسي، أما الفترة المسائية فيبدأ عندي نهار جديد لأشياء أخرى..

كنت مُدرسة الموسيقى الوحيدة بالمدرسة، وهذا يعني أن اليوم الدراسي لديّ مُمتلئ على آخره، من الحصة الأولى وحتى السادسة، إلا يوم واحد مُتفرغة به تمامًا لأعمال الإشراف وتسكين الفصول حسب الجدول في كل حصة وبعد الفُسحة.

وأثناء مروري على الفصول، وجدت «**يوسف**» أحد الطلاب المتفوقين بالمدرسة يُعاقبه مُدرس الرياضيات الأستاذ «**مدحت**» بسبب كشكول به أشعار من النوع الرومانسي وجدها مع الطالب يقرأ ما بها على زملائه في الفسحة بصوت مرتفع لفت انتباهه وأسماعه، وقرر حينها عقابه على الملأ أمام كل الزملاء والطلاب في طُرقة المدرسة الرئيسية.

أغضبني الأمر من الزميل لا من الطالب لأسباب كثيرة، أولًا: أن هذا الطالب كان يقرأ على زملائه من أشعار معه خلال الفسحة، وهذا الوقت من حق أي طالب أن يفعل به ما يشاء تنفيسًا عن طاقاته في حدود الأدب، ورأيت الطالب لم يتعد حدوده، ثانيًا: عندما فتشت ما في الأجندة.. لم أجد بها أي كلمة تخدش الحياء أو خارجة بل كان العكس تمامًا، ثالثًا: من المُفترض على زميلي العزيز «**مدحت**» أن يُشجع الطالب على القراءة وتنمية الذوق العام لديه وعلى باقي الطلاب بدلًا من العقاب.

احتفظت بالكشكول معي، وجلست مع مدحت جلسة عمل، أوضح بها رأيي بكل ود واستقبل كلامي بسعة صدر منه، وسمح بعدها «**مدحت**» للطالب أن يذهب فصله ليكمل باقي حصصه مع زملائه.

اتصل بي المشرف على رسالتي وطلب مقابلتي في مكتبه بالجامعة اليوم، أخذت إذن رسمي من مُدير المدرسة وذهبت للدكتور «**هاشم عبد الجواد**» الأستاذ الدكتور بكلية التربية قسم صحة نفسية، أشهر الدكاترة على مستوى جامعة القاهرة، بل وكل الجامعات، تلقى دراسته بألمانيا وعاد حاملًا شهاداته، رأيت به نموذج لكل باحث مصري يطمح لذلك، لكنه يصعب عليه توافر إمكانيات السفر بالخارج في حدود المتاح، فمصر من أعظم البلاد في قتل الطموحات ودفنها داخلنا وفي تصدير العقول واستيراد الأقدام عوضًا عنها، وتساءلت لو كان أستكمل دكتور هاشم دراسته في مصر هل كان سيصل إلى ما وصل إليه الآن؟ وأثناء حديثي معه وتعديلنا لبعض عناوين فصول رسالتي طلبت منه طلبًا مفاجئًا:

ـ بحلم أسافر أكمل دراستي برا مصر زي حضرتك يا دكتور.

قال بضحكٍ: أوعدك إني أساعدك تكملي رسالة الدكتوراه برا لأنك تستاهلي.

كان اليوم طويلًا ومرهقًا كثيرًا لكنني سعيدة بالوعد الذي قدمه لي الدكتور هاشم، وحلم السفر رُبما يتحقق على يديه، ومئات الخطوات التي أسيرها هنا من أجل حلم واحد في بلدي، سأنجز أحلام كثيرة بقفزة واحدة بالخارج، وإحباطات البشر ستزول في عالم جديد بمفردي.

أخذتني أحلامي بعيدًا وسرقت النوم عن عيني، أتقلب في الفراش بلا نوم، من يُهدأ بُركان التفكير برأسي؟ التفكير يُلاحقني حتى في وقت النوم، أريد أن

آخذ قسطًا من الراحة حتى أتمكن غدًا من أداء مهامه على أكمل وجه، قررت أن آخذ كبسولة من المهدآت التي أخفيها في حقيبتي، هذا العلاج وصفه لي طبيبي النفسي الذي ذهبت إليه قبل عام، عندما شعرت حينها أنني غير قادرة على مواجهة الحياة، ودخلت حينها في حالة اكتئاب، اعتزلت البشر، التزمت الغُرفة، امتنعت عن الطعام والكلام، حالة سيئة.. تأتيني من حين لآخر، قد حذرني الطبيب المُعالج من عواقبها.

بينما كنت أتناول قُرص المُهدأ.. وقعت عيني على كشكول الأشعار الذي كان سببًا في معاقبة يوسف، وجلست على الفراش وفي يدي الكشكول الصغير، وفتحت الصفحة الأولى.

قرأت أشعارًا وخواطر كثيرة في حياتي، لكن هذه الكلمات ليست كمثل ما قرأت سابقًا، لمست قلبي صدقًا، وصفتها بالسهل المُمتنع، أدهشني صاحبها في وصف حبيبته، وكأنها ملاك بين بشرٍ، ربما حقدت عليها لبعض الوقت، وربما تمنيت أن أكون مكانها وأن يُخصص حبيبي بعض وقته لأجل الكتابة عني، حتمًا أنها امرأة.. الحظ حليفها، لأنها وجدت رجلًا في زمننا هذا يقوى على الحب، رجل يحب في زمن لا يعرف الحُب.

تذكرت صغيرتي «**ليلى حافظ**» عندما كانت بعمر سبع سنوات، كانت تلعب وسط أطفال الشارع، وفجأة رأت عصفورًا صغيرًا، تركت اللعب وجريت خلف العصفور، حتى اختفت عن الأنظار، ظلت تجري وتجري حتى ضلت الطريق، ظنت أنها من الممكن أن تلحق به وتمسكه وبعدما قطعت وقتًا طويلًا

في الجري، تعبت وجلست على الأرض تبكي، المكان غريب عليها، لا تعرف كيف تعود؟ أبيها حتمًا سيضربها على التأخير باللعب، العصفور فر بعيدًا، صار مستحيل اللحاق به، فطريقه بالسماء وطريقها الأرض، والفارق بينهما جناح، وليس عندها جناح.

ـ ماما.. ماما.. ماما!!!!!.

ظلت تنادي ولم يسمعها أحد، بكت وملأها الخوف، حتى سمعت صوتًا بعيدًا يقترب..

ـ ليـــلـى.. ليـــــلـى!!

قفزت من مكانها بسعادة.. انه صوت حسين.

ـ ليلى هنا يا حسين..

كانت دومًا تتحدث عن نفسها بذكر اسمها وكأنها شخص آخر..

اقترب حسين وفي يده يحمل عصفورا صغيرًا.

ـ مسكته أزاي يا حسين.. ليلى ماقدرتش تمسكه.

ـ لقيته واقع على الأرض.. وجناحه مكسور.. خُديه أنتِ يا ليلى.

فرحت وركضت نحو البيت مع عصفورها الجديد، فأحضر أبيها قفصًا حديديًا وقال:

ـ حطي فيه العصفور يا ليلى.. كدا تحافظي عليه أكتر!!

سمعت الصغيرة كلام أبيها دون نقاش، وظلت تتأمل العصفور طوال الليل، تتأمل حركة جناحه داخل القفص، لا تعلم هل شُفي من الجرح الذي يصيبه بجناحه أم لازال مريضًا.. وكيف تعلم وهو داخل هذا القفص لا يطير؟؟

زادت حالة العصفور سوءا عن ما كان عليه بالنهار السابق، وأخذ جانبًا صغيرًا وجلس به، ثابتًا دون حركة، انتظرت ليلى خروج أبيها للمسجد لصلاة الفجر، ومع أول شعاع ضوء للشمس فتحت باب القفص، رفرف العصفور كثيرًا داخل القفص، وكأنه لم يصدق أن باب الحياة قد فُتح له، خرج منه سريعًا خوفًا من إعادة غلقه، تخبط في سقف الغرفة وسقط على الأرض وظل يُقاوم جُرحه وألمه ويطير لمسافات قريبة من الأرض وكأنه يتعلم الطيران من جديد أو كأن الساعات القليلة التي ظل بها داخل القفص نسيّ بها أنه عصفور، وكانت ليلى تتأمله وقلبها يرفرف معه، حتى تمكن العصفور من الهرب من نافذة الغُرفة، وكان من الصعب فراقه على ليلى لكنها أرادت له الحُرية والحياة وساعدته على ذلك وكأنها تُريد هذا لنفسها، وطار نحو السماء البعيدة وليلى مُبتهجة وكلها سعادة.

رجع أبيها من الصلاة ووجد القفص دون عصفوره، واقترب من ابنته، وعيناه تشع غضبًا، وصفعها بكل قسوة، حتى ظلت آثار أصابعه على وجهها لسنوات وسنوات، وظلت تراها كُلما نظرت في المرآة، وكانت هذه هي الصفعة الأولى في تاريخ حياة ليلى.

صارت ليلى تكره الجري خلف الصغار، تجلس في مكانها على عتبة البيت تتابع جريهم.. تحليقهم.. ضحكاتهم!

ناداها ابن عمها: ليلى.. تعالي اجري معانا؟؟

ردت مُنكسرة: ليلى رجلها بتوجعها يا حسين..

لم تكن قدمها تؤلمها بشكل عضوي، لكن صفعة أبيها.. أثرت عليها نفسيًا، زرعت بها الخوف، الخوف من كل شيء ومن الناس، الخوف من الضحك ومن اللعب، الخوف من مُمارسة طفولتها أو من كونها بنت.

ـ ليلى.. تعالي نلعب حاجة مافيهاش جري وإحنا واقفين في مكاننا.

لم ترد عليه ليلى..

ـ محتاج مُساعدتك يا ليلى في لعبتنا اللي أنتِ بتحبيها.. تعالـــي!!!

لم ترفض ليلى طلبه هذه المرة، وذهبت إليه وقام حسين بتقسيم الأطفال إلى فريقين بكونه أكبرهم سنًا، وجمع كُل الأطفال في فريقٍ واحد ومنهم أخيها موسى الذي كان في نفس عُمر أخته لأنهما توأمان والفارق العُمري بينهما دقائق، وقال موسى بدهاءِ الصغار: لمّا نكون كلنا في فريق واحد، مين يمسك الحبل ضدنا في الفريق التاني يا حسين؟

أجاب «**حسين**» وهو يأخذ وضع الاستعداد للعب وليلى خلفه: «**أنـا وليـــلى**».

وهمس في أذن «**ليلى**» وكأنه يُعطيها سر الفوز المؤكد:

ـ خلي أيدك على أيدي يا ليلى عشان نكسب..

أمسك حسين طرف الحبل ووضعت ليلى يدها الصغيرة على يديه، وقاما بشد الحبل وسقط كل أطفال الفريق الآخر على الأرض، وضحكا الفائزان بصوتٍ مرتفع، ظلت هذه الضحكة تُلازم ليلى طوال حياتها كصفعة أبيها، مع الفارق بين الاثنين، لأنها تبتسم عندما تتذكر الأولى وتدمع عندما تتذكر الثانية، وهذه كانت المرة الأخيرة التي يكسب بها «**حسين**» باللعب، لأن ليلى لم تعد تلعب معه بعد ذلك بسبب عمه الذي منعها من اللعب خارج البيت.

لكن «**حسين**» كان دائم الزيارة والتودد لبيت عمه، يرسله عمه لشراء بعض طلبات البيت من وقت لآخر من محل بقالة أبيه الصغيرة، وكان حسين ينتهز الفرصة كي يلمح ليلى من بعيد وهي تلعب مع قطتها، وفي مرة أحضر معه اثنين من حلوى «**العسلية**»، وأعطى واحدة منها لابنة عمه وقال:

ـ فريقنا النهاردة خسر يا ليلى.. أيدك على أيدي كانت بتقويني.

فهمت الطفلة النصف الأول من قول حسين «**فريقنا النهارده خسر يا ليلى**» وفرحت عندما علمت أنها كانت سببًا في الفوز، لكنها لم تُدرك معنى نصف قوله الثاني «**أيدك على أيدي بتقويني**» إلا بعد مرور السنين وأننا قد نصير ضعفاء جدًا دون أحبابنا.

كلفتني المؤسسة بمُتابعة بعض المدارس الفقيرة في أكثر من مُحافظة، كان الموضوع شيق جدًا لي، ولم أر به أي تعب، فأني أعشق السفر والجلوس بالقطار جانب النافذة، أتأمل الطريق لساعات وساعات دون ملل، فمنظر الطريق يسرقني عن كل شيء وأي شيء، عن الكتاب الذي أمسكه بيدي وأود أن أفرغ منه قبل الوصول، عن من يجاورني المقعد، عن الركاب جميعهم، وعندما يسألني أحد عن تفاصيلِ الطريق، ستكون إجابتي «**لا أعلم**».

بدأت رحلة بحثي عن المدارس الفقيرة، وقمت بزيارة أكثر من عشرين مدرسة بمحافظات مُختلفة وكتبت تقارير عن احتياجات كل مدرسة المادية من مقاعد وتجهيزات، وغير ذلك من أدوات رياضية وموسيقية.

وبعد عودتي من رحلة سفري القصيرة، أرسلت كل تقاريري ومُشاهداتي للمؤسسة عبر البريد الإلكتروني.. ثم التزمت الفراش يومًا كاملًا في النوم، أغلقت هاتفي وانفصلت تماما عن العالم.

لم يأخذني عملي الجديد عن عملي التطوعي بالجمعية، فلكل منهما رسالة مُختلفة وهدف أسعى لتحقيقه طالما حييت يكمن في زرع ثمار من الأمل أينما ذهبت، كي أحصد أملًا كما زرعت.

ذهبت للجمعية قبل المغرب وشرحت درس من النحو ورضيت عن أدائي لشرح الدرس عندما راجعته ووجدت ردود فعل الطلاب إيجابية، ما عدا الطالب يوسف، الذي كان صامتًا طوال الوقت.

وقطعت لحظات صمته وقلت: لو سمحت يا يوسف.. حصلني على مكتبي !

سبقته على المكتب ووجدت صفية تنتظرني، سلمت بحرارةٍ وكأنني تغيبت عن الجمعية عام وليس شهر وقالت بتودد: كل دي غيبة عن الجمعية يا أدهم؟

قلت مُعتذرًا: كُنت مسافر مُتابعة تبع شغلي الجديد.. سامحيني غصب عني!

ـ ومدرستك يا أدهم؟

ـ أخدت أجازة بدون مُرتب..

ـ ربنا يعينك ويبعتلك رزق في كل خطاويك لكن ما تغيبش عن الجمعية.

نادرًا ما تجد إنسانا يدعو لك من قلبه وكأنك من أهل بيته، وكانت صفية دائمة التودد لمن تعرفه ولمن لا تعرفه.

تعيش صفية بمفردها في بيتٍ طويل عريض، كان أبيها يعمل مُستشارًا وكانت أمها من سيدات المُجتمع، فهي ابنتهم الوحيدة التي أدخلوها مدارس اللغات وحصلت على أعلى وأقيّم الشهادات من أمريكا.

كُلما يتقدم أحدًا لخطبتها يكون رد والديها عليه الرفض، فلم يروا في كل من تقدم المركز المرموق الذي يتطلعون إليه، وكان الزواج لديهم له معايير مادية بحتة وحكمهم على البشر من منظور أعلى وكأن الأرض لم تنجب غيرهم.

تقدم العمر بصفية وغادرها قطار الزواج، وأصبحت تعيش بين حوائط البيت بمفردها بين شهاداتها وقططها فلا أتى الزوج ولا داما الأب والأم.

لكن صفية تعتبر أختًا لكل العاملين بالجمعية وأمًا لكل أطفالها، وكأن الله وضع بها حنان ودفء يستشعر به كل من تحدث معها من أول مرة، نحبها جميعًا ونتودد إليها مثلها.

أتذكر أنني في مرة ضاق بي الحال ماديًا وكان أبي بحاجة إلى عملية بعينيه حتى لا يفقد بصره بشكل كامل، ووجدتها أمامي تعرض مساعدتها وتحملت كُل تكاليف العملية ولم تُطالبني حتى الآن بسداد المبلغ، لكنني لن أنسى الدّين أبدًا، فراتبي بالعمل الجديد ثلاث أضعاف راتب المدرسة، وحتمًا سأرد الديّن قريبًا.

قطع يوسف حديث صفية معي عندما طرق باب المكتب:

ـ أتفضل يا يوسف تعالى..

سمحت له صفية بالدخول وبعدها استأذنت كي تُتابع باقي حصص التقوية بالجمعية، وقلت: مالك يا يوسف.. معاك مُشكلة في البيت أو المدرسة؟

لم يجبني وكانت عيناه على الأرض لم يجرؤ على رفعهما نحوي، فأخرجت من دُرج المكتب ظرف النقود الشهري الذي تقدمه الجمعية لمُساعدته هو وأخوته لأنهم أيتام.

لم يأخذ يوسف النقود وحينها تجرأ بمُصارحتي بما حاول إخفائه عني:

ـ أنا آسف يا مستر أدهم.. أنا أخدت كشكول أشعارك اللي كان هنا على مكتبك من غير استئذان ولما كنت بقراه في المدرسة.. الأستاذ مدحت عاقبني وميس الموسيقى أخدته مني.

ضحكت وسألته: المس دي حلوة؟

بادلني يوسف الضحك وأجاب: زي القمر يا مستر..

قلت مازحًا: أبقى سلم لي عليها يا ولد..

ثم أعطيته ظرف النقود ثانية وأخذه مني وقال مُتطوعًا:

ـ أنا هاخد جزء من المبلغ يا مستر لمدرستي..

ـ مالها مدرستك يا يوسف؟

ـ المدرسين والمدرسات جمّعوا من بعض فلوس عشان يشتروا مراوح للفصول.

سألته عن اسم المدرسة ومكانها تحديدًا بالقاهرة، وطلبت منه أن يُخبر مديرها أن يتوقف عن جمع تبرعات من الطلاب أو مساعدات من المُدرسين والمدرسات، وسأقوم أنا بزيارتهم خلال يومين بصفتي مسئول من المؤسسة.

الصُدفة الأولى

أيقظتني «**كيتي**» قطتي المُدللة ووجدت نفسي قد تأخرت كثيرًا عن موعد حضور العمل، ارتديت ملابسي على عجل، وقطعت مشوار المدرسة في أقل من خمس دقائق وفي المُعتاد يأخذ مني رُبع ساعة، لكن التأخير والخوف من حديث المُدير السخيف يُجبر أي عامل بالمدرسة أن يطير بدلًا من أن يسير.

ـ السلام عليكم يا أستاذ طاهر.

لم يرد المدير على سلامي وهذه عادته عندما أتأخر، لكن المكتب به ضيف غريب ويبدو منظري سيء للغاية في تجاهل الرد عليّ من قبل مُديري العزيز، ودخلت الحصة الأولى وكان الطالب يوسف يقف على الفصل لحين قدومي بصفته رئيسًا له، طلبت منه الجلوس في مكانه وعاقبت الطُلاب المشاغبين بمنعهم من خروجهم للفُسحة هذا اليوم والتزامهم الفصل، هذه كانت من وسائل عقابي، فأنا أرفض العقاب البدني كثيرًا، وخاصة أننا نتعامل مع طُلاب كُبار في المرحلة الإعدادية، بل وأرفضه بأي مرحلة أخرى.

كتبت على السبورة تاريخ اليوم التاسع عشر من أغسطس، وكتبت عنوان الدرس في المُنتصف، والفصل كان هادئًا بصورة تستدعي دهشتي، أدرت وجهي ثانية نحوهم، ووجدتهم ينظرون إلى هذا الضيف الذي لمحته قبل قليل في مكتب المُدير والآن يقف على باب الفصل، وكنت لم أنتبه لوجوده أثناء كتابتي للتاريخ والعنوان، وحينها نادى يوسف بصوت مُرتفع: مستر أدهم..

خلعت نظارتي ورحبت بالضيف: أهلا وسهلا يا فندم.. حضرتك قريب يوسف وجاي تطمن على مستواه؟ أنا هنا مُدرسة موسيقى.. مُمكن تتفضل تطمن على مستواه من مدرسين المواد الأساسية!!

رد الضيف: أنا مش قريب يوسف.. أنا مُتابع وبمر على الفصول عشان أشوف احتياجاتها.. وآخد حاجتي منك.

قلت بعصبية: حاجة إيه؟

ابتسم: كشكول خواطري يا ميس..

قلت مُعتذرة: أنا آسفة.. نسيته في البيت.

غمز الضيف ليوسف من بعيد: معاك حق يا يوسف!!

ثم نظر للطلاب وسألهم: ماذا حدث في يومنا هذا ٨/١٩؟

أجاب الطُلاب إجابات مُختلفة من حرب ومن عيد وهناك من قال عيد زواج أبي وأمي وضحكنا على رده، لكن لم يتوصل أحد إلى الإجابة الصحيحة التي يُريدها ضيفنا الكريم حتى رحل دون معرفتنا إجابته وكان الفضول يقتُلني.

ذهبت إلى غُرفة المدرسات للإفطار بعد ثلاث حصص وراء بعضهم دون فاصل أو راحة، وقطع العامل «**عم ثروت**» تناولي سندوتش الحلاوة الطحينية الذي تُعده لي أمي كل صباح مُنذ وان كنت طالبة حتى وان صرت مُدرسة وقال:

ـ الأستاذ أدهم المُتابع طلب يجتمع معاكِ على انفراد.

وصلت غُرفة المناهل حيث كان يعقد اجتماعاته مع المدرسين هُناك كل واحد على حدا، وبينما كنت أقف على بابها أكملت «**السندوتش**» لحين انتهاء المقابلة مع زميلي الأستاذ مدحت.

ألقيت السلام: السلام عليكم..

التفت نحوي: أهلا بيكِ.. أتفضلي.

جلست أمامه وكان يفصل بيننا درج صغير، رأيت حينها لون عينيه بوضوح، عسليتين كلون الغروب، وأحببت كثيرًا ذقنه الخفيفة المختلطة بالبياض مع أنه لازال رجلًا ثلاثيني، أما شفتيه قد أبدع الخالق في رسمهما.. وضحكت داخلي لأنني في مكان عام لا يسمح لي بالتدقيق في جمال ملامحه هكذا أو بتخطيط شفتيه، وفزعني بسؤاله: عرّفيني بنفسك.. وقوليلي شايفة مدرستك محتاجة إيه من أجهزة وأدوات؟

نظرت بعيني بعيدًا عن عينيه حتى أتمكن من الكلام وافتعلت الجدية:

ـ ليلى حافظ.. مُدرسة موسيقى بالمدرسة واحتياجات المدرسة اللي أنا شايفاها من مُنطلق مادة تخصصي.. أننا محتاجين أدوات موسيقية يا أستاذ أدهم!

سألني: عرفتي إجابة سؤالي.. ماذا حدث في تاريخ اليوم؟

قلت: لا.. فاستخدم جرأته ومد يده نحو وجهي وخلع عني نظارتي التي كانت تحجب بين نظراتنا وقال بنبرة مُنخفضة:

ـ **«أول مرة أدهم زين العابدين يقابل فيها ليلى حافظ»**.

دائمًا ما نرى الحياة في أعيننا حسب الحالة التي بها قلوبنا، وبدأت أرى الحياة جميلة.. جميلة جدًا، أصبحت أفكر بها في كل الأوقات، كيف كانت تتحدث؟ وكيف كانت تبتسم بغمازتيها؟ وكيف كانت تنظر لملامحي وتشرد بها؟ وكيف كان شكل عينيها دون النظارة؟

أظن بأنني أحلم بحلم بطلته تُسمى «**ليلى**»، هذه التي طرقت جميع أبواب قلبي وفتحتها دون إذن أو طلب، هذه التي انتظرتها طويلًا وكتبت إليها قبل أن أقابلها، هذه التي سأحيا معها قصة حقيقية، وكل ما سبقها ما هو إلا أشباه قصص، هذه التي جعلتني أصدق أن هناك حب بالفعل قد يحدث من النظرة الأولى، هذه التي جعلتني في حالة فريدة.. لست أدري بعد ما اسمها؟

قدمت تقريري للمؤسسة بالاحتياجات اللازمة لكل المدارس التي قُمت بمتابعتها وسلمته بنفسي للمدير التنفيذي للمؤسسة «**نور**»، تلك الفتاة التي تركت عملها السابق الذي كانت تأخذ منه راتب شهري أضعاف راتبها الحالي، لكنها لم تجد به نفسها، كانت تفعل مثلما يفعل باقي موظفين بالدولة، حضور في الصباح.. جلوس على المكتب تحت المُكيف.. بضع أوراق أمامها.. كم من الاتصالات الهاتفية من العُملاء.. انصراف بعد الظهر.. راتب لا بأس به آخر الشهر!!

لم تحب «**نور**» هذا المجال الروتيني الذي يجلب الملل والرتابة والعجز المُبكر، قدمت استقالتها منه، وفتحت حضانة صغيرة كانت مديرتها، وبعد وقت قياسي، تحولت الحضانة إلى مدرسة مُجتمعية بالتعاون مع جهة رسمية من خلال

مُساعدة شركة أغذية معروفة بمساهمة مادية، وبعدها قررت أن تنشأ مؤسسة تعليمية مع زوجها الذي قابلته صدفة في أحد الشركات الكبرى عندما كانت تطلب مساهمات مادية لتمويل المؤسسة الصغيرة؛ إلى أن صارت مؤسسة كبيرة من أكبر المؤسسات المشهود بأدائها المُتميز.

حدثتني عبر هاتفي: أزيك يا أستاذ أدهم؟

قلت بلهفة الحديث: أزيك أنتِ يا ليلى.. عاملة إيه؟

بررت اتصالها: بخير.. كشكول الأشعار هبعته لحضرتك مع يوسف!

قلت: أنا مش هقابل يوسف الفترة دي يا ليلى.. ممكن آخده منك في المدرسة يوم الأربع.. أنا جاي عندكم زيارة.

كان تتكلم معي بشكل رسمي «**أستاذ.. حضرتك**»، وكنت أناديها باسمها دون أي ألقاب كأنني أعرفها من زمنٍ بعيد، وسجلت رقمها على هاتفي، حتمًا سأحتاج إليه أيامي القادمة، ربما لسبب مُعين وربما فقط من أجل سماع صوتها وهذا هو السبب الأساسي.

انتظرت يوم الأربعاء بفارغ الصبر، وكأن الوقت يرفض أن يمر، حاولت أن أنشغل عنها بالعمل، لكنها احتلتني بكل قوة، ولم تترك تفكيري أبدًا حتى وإن كنت بين الناس، رجل مثلي لا يطيق الانتظار.. لكنني انتظرت وتحملت!

ذهبت يوم الأربعاء لمدرسة ليلى، ومعي عربة نقل متوسطة بها كُل احتياجات المدرسة اللازمة من أجهزة كهربائية ومراوح وحاسبات آلية وأدوات رياضية وأيضًا لم أنس طلب ليلى.. وأحضرت معي الآلات الموسيقية!!

بحثت عنها كثيرًا بعيني في الطرقات وفي غرفة الإدارة، تمنيت لو قابلتها صدفة أمامي، أحضن يديها بسلامي، تمنيت أن أخبرها أنني اشتقت إليها كثيرًا، تمنيت الكثير والكثير لكنني لم أرها، طلبت من المدير أن أمُر على الفصول سريعًا ربما أجد شيء جديد يحتاجونه، وفي الواقع أردت بهذا الطلب أن أرى.. **«ليلى»**.

كل الفصول بلا **«ليلى»**.. ولمحت على سبورة آخر فصل مررت به **«احتياطي موسيقى»**، وعلمت أنها لم تأت اليوم للمدرسة مع إنني أخبرتها بموعد قدومي مُسبقًا.

أخذت إمضاء المُدير على استلامه الأدوات الجديدة للمدرسة، وطلبت منه أن يُفعّلها بشكل جيد دون أن يضعها داخل الدواليب الحديدية أو يتركها هكذا للعرض فقط دون استخدام الطلاب وعُرضه للأتربة والإهمال.

لم أتردد لحظة واتصلت بها ولكنها لم ترد، قاومت رغبتي بمعاودة الاتصال، يكفي مرة واحدة، فأنا رجل يأخذ كل شيء على محمل التقدير، فلم تُقدر رغبتي بمقابلتها، إذًا لم أتصل بها ثانية ولن أرد عليها حتى وان اتصلت بي عشرات المرات، فهي التي بدأت حرب التجاهل.. وأنا المُنتصر!

مسحت أمي على رأسي وهي تقرأ بعض الآيات القرآنية وتدعو الله أن يشفيني، فأنا مريضة بالقلب، دائمًا تأتيني نوبة إغماء طويلة وحالة من الهبوط المُتكرر، قد يستدعي الأمر ذهابي للمصحة لأخذ محاليل؛ كي أعود أن أصلب طولي ثانية وقد لا يستدعي الأمر غير قليل من المقويات والفيتامينات..

دائمًا أسمع الطبيب يُخبر أهلي ألا أتعرض لأي موقف مفاجئ أو صدمة أو حتى فرحة، أن أحيا الحياة بصورة عادية.. عادية جدًا على خط مُستقيم خالية من أي انحناءات أو أحداث كي أعيش طويلًا.. لكن ما فائدة الحياة بهذا الشكل؟ الحياة إن لم نحياها بتهور مع كثير من الجنون.. فلا داع منها على الإطلاق.

لم أكن قد تعافيت تمامًا، لكنني تحاملت على نفسي وقاومت ضعفي، وقطعت إجازتي المرضية وذهبت للمدرسة، فالرقود في الفراش يُزيد المرض مرضا، وذهبت للمدرسة وسلمت على كل من قابلته من الزملاء بعد غياب دام أسبوع، ودخلت غُرفة المُدرسات وكانت مُفاجئتي وسعادتي عندما وجدت أمامي الأدوات الموسيقية التي طلبتها من الأستاذ أدهم قبل ذلك.

أدهشتني هذه المُفاجئة وكاد قلبي أن يطير من فرط السعادة وكأنه أحضر هذه الآلات الموسيقية لي أنا وحدي دون غيري، تذكرت نصيحة الطبيب «**ما تفرحيش أوي وما تزعليش أوي**».. ولكنني لم أهتم بنصيحته، وصرت أعزف على الكمنجة وأنتقل للبيانو وأجري نحو الناي، أصدر أصواتٍ مختلفة في وقت واحد وكأن لدي أكثر من يدين وأكثر من عشر أصابع، وكانت الطبيعة تعزف معي والصباح يشهد على سعادتي.

مسكت هاتفي واتصلت به كي أشكره، لكنه لم يرد مع أنني كررت اتصالي ثلاث مرات، خمنت أنه قد يكون غاضبًا مني لأنني تغيبت عن المدرسة في نفس اليوم الذي أتى به إلى هُنا، لكنني من أكون أنا بالنسبة له كي يفرق معه حضوري أو غيابي؟ فما أنا إلا مُجرد مُدرسة طلبت طلبًا لمدرستها واستجاب له بناء على طبيعة عمله، من المؤكد أنه مازال نائمًا في هذا الوقت من الصباح أو ذهب إلى عمله ومنهمك به إلى الحد الذي جعله لم يلتفت لرقمي ويرد عليّ.

استكملت يومي الدراسي، ودخلت حصة بفصل الطالب يوسف، وبعد أن شرحت السلم الموسيقي على السبورة، قُمت بشرحه عمليًا من خلال العزف للتعرف على أصواته المُختلفة، ثُم جلست على المقعد كي أريح قدمي قليلًا.

ثُم استأذنني يوسف بأن يُخبر زملائه عن شيء ما:

ـ اللي عنده ملابس بطل يلبسها ياريت يساعد بيها غيره ويبعتها لجمعية «**دار الأمل**» أو يجيبها لي وأنا أسلمها للجمعية بنفسي..

جميل هذا الطالب لأنه يُحب فعل الخير دائمًا، أخذت عنوان الجمعية منه بعدما قررت أن أعطي لهم زكاة المال لهذا العام، ورن جرس انتهاء الحصة الأخيرة، وذهبت لمعركة إمضاء الانصراف اليومية، فكل زميل لا يعرف زميله في هذا التوقيت المُحرج، وكأننا في سباق كبير لمن الذي سوف يخرج من باب المدرسة أولًا وقبل الجميع، أو أننا كُنا في سجن وأردنا الهروب سريعًا للحياة قبل قدوم صباح اليوم التالي، والعودة إليه مُجددًا.

عُدت للبيت ووجدته فارغاً من ساكنيه، فكانت أمي في زيارة قصيرة لبيت العائلة، لزيارة زوجة عمي التي كانت تعيش حزينة دون زوجها وابنها الوحيد بعد سفريهما بالخارج من سنواتٍ ولم يعودا إلى الآن، انتهزت الفرصة لكوني وحدي هنا، واتصلت بأدهم للمرة الرابعة.

كُنت قد قطعت عهدًا على نفسي أن أنتصر في حرب التجاهل التي شنتها ليلى عليّ، لكنني خسرت بلا أدنى مُقاومة، وفي اتصالها الرابع قُمت بالرد عليها، وتحدثت إليها عاتبًا:

ـ ليه غيبتي من المدرسة يا ليلى في يوم زيارتي؟

قالت مُعتذرة: تعبت فجأة!

سألت مُنزعجًا: أيه سبب التعب؟ طمنيني عليكِ!!

قالت وكأنها تخفي أمرًا: أبدًا أبدًا.. تعب بسيط ودلوقتي بخير.

قلت بجرأةٍ: مُمكن أشوفك النهاردة بالليل؟

اعتذرت ليلى: عندي مشوار مُهم.. خليها مرة تانية!

قلت غير متحمسًا: اللي تشوفيه يا ليلى.. على راحتك!

وأوضحت سبب اتصالها: شكرًا على الآلات الموسيقية اللي جبتها لمدرستنا..

قلت واثقًا: ما تُشكرنيش على شُغلي..

سكتت قليلًا ثُم أغلقت الهاتف دون سلام وكأنني أحرجتها بردي هذا عليها، وعندما حاولت أن اتصل بها ثانية وجدت هاتفها مُغلقًا.

عاتبت نفسي كثيرا طوال اليوم، أفكر في الحوار من بدايته، أتذكر كل كلمة قالتها أو سكتت عنها، وألوم نفسي على حماقة ردي في النهاية، سكبت الماء على رأسي كي أهدأ ما به من تأنيب، وخرجت قاصدًا الجمعية.

الصُدفة الثانية

لقد فرغ الهاتف من شحن بطاريته وغُلق أثناء حديثي مع أدهم، أسرعت ووضعته في شاحنه لمعاودة الاتصال به ربما يعتقد أنني قد تعمدت إنهاء المُكالمة معه وغلقه، لكن أمي قد حضرت إلى البيت وانشغلت معها في أحاديثها عن أوجاع زوجة عمي وانتظارها الذي طال للغائبين.

جميعنا نخشى الخوض في تجربة العيش مع أشخاص يشعرونك بالوحدة وهذا الأصعب من كونك وحيد بالفعل، فكانت زوجة عمي مُدللة من والديها إلى الحد الذي تكون به طلباتها أوامر، أحبت بجنون، وقفت أمام أهلها من أجل الزواج به، وأنجبت منه ابنهما الوحيد، لكنه لم يصن الحب الكبير الذي بينهما وصار يبحث عن بديل، وعندما اكتشفت هذا.. طلبت الطلاق فرفض واعتذر لها، وعندما أصرت على طلبها، سافر ومعه ابنه حسين، وتركها بمفردها بين جدران البيت وحيدة تبكي حالها وتندم على حبها له في يوم ما ومُعاداتها أهلها الذين قاطعوها بسببه ورفضوا عودتها إليهم، وكانت ضحية لرجلٍ لا يعلم أن الحياة قصيرة.. قصيرة جدًا، لا وقت بها لنبحث عن حب آخر ونحيا وهم بدايات أخرى ونترك من يُحبنا بالفعل.

فتحت دولابي كي أعيد ترتيبه، هذه عادتي من وقت لأخر.. ترتيب وضعية ملابسي حسب الأهمية والاستخدام، فهناك من يتصدر المُقدمة وهناك ما وضعته بالأدراج الجانبية رُبما أحتاج إليه في يوم، وهناك ما استغنيت عنه تمامًا، فحال ملابسي كحال البشر جميعهم في حياتي.

أخرجت ملابس كثيرة لم أعد أرتديها، ووضعتها في كيس كبير وقصدت بها الجمعية التي أخبرني عنها يوسف، وجدت بابها مفتوحًا على أقصاه وطاولات ومقاعد كثيرة عليها أطفال، تجولت المكان سريعًا بعيني، به من الراحة ما يُزيح هموم العالم، فنظرة في عين طفل محروم عندما تلبي له طلبًا بسيطًا يجعل أتعس الناس أكثرهم سعادة.

سألت أحد الأهالي: فين مُديرة الجمعية؟

أشار بيده نحو الغُرفة الجانبية، فنظرت مكان إشارته فوجدت أمامي أدهم!!

تفاجأ وقال بترحيبٍ: أهلا وسهلا.. أتفضلي يا ليلى!

قلت وكأنني أهرب: فين المُديرة عشان مستعجلة وعايزه أمشي؟

قال بثقةٍ: أعتبريني أنا المُدير.. صفية مجاتش النهاردة.

وضعت حقيبة الملابس جانبًا وعلى المكتب ظرف به نقود زكاة المال لهذا العام وقلت: مُمكن تقولها في واحدة سابت لك دول كتبرع للجمعية؟

قال دون تفكير: مُمكن أعزمك على العشا في أي مكان برا يا ليلى؟

أجبته أيضًا دون تفكير: مُمكن يا أستاذ أدهم..

كل الأشياء تنجذب نحو قرينها وكذلك الأشخاص، وكانت ليلى قرينتي التي انجذبت إليها دون إرادة، أحببتها دون تفكير، لعبت الصدفة معنا دور البطولة، وكانت البداية مُبهجة إلى الحد الذي لا نقوى فيه لحظة على تخيل الفراق.

قاومت رغبتي المُندفعة إليها، وكلما قاومت.. انهرت أمام عينيها، ذهبنا ليلًا إلى كورنيش النيل ووقفت جانبي تتأمل سكون الليل، ووقفت جانبها أتأملها، رأيتني جريئًا في التعبير عن مشاعري بينما كان الخجل يُزيدها خجلًا، أنظر إليها وتهرب بنظراتها، أقترب منها وتبتعد، أتحدث معها وتسكت، فما أجمل السكوت في حضرتها، وكأن للسكوت صوت مسموع نبراته من نبضاتنا.

وصلت جرأتي إلى أنني خلعت عنها نظارتها العريضة، وقلت:

ـ عيونك حلوة بلاش تداريهم.

ـ لكن أنا عينيا لونها أسود مش ملونة يعني عشان تعجبك.

ـ الأهم عندي من لون العين.. النظرة يا ليلى، وأنتِ خطفتيني بنظرتهم!

وكان هذا الفارق بيني وبين بعض الرجال أنهم ينظرون للنساء من الخارج، لكنني يُبهرني الجوهر أكثر، وقابلت كثيرًا بحياتي نساء بأعينٍ قد أبدع الخالق في تلوينهما ورسمهما، وأجساد من كل شكل ولون، لكن لم أقابل أبدًا امرأة لها نظرة ليلى وروحها، فالنظرة أهم ما في العين وجمال الروح أهم من جمال الجسد، سحرتني روحها المرحة الطفولية ونظراتها العميقة وأوقعت بقلبي لسابعِ أرض على مرة واحدة، حركتها وحديثها الطفولي، ردود أفعالها الغير متوقعة، طريقة نُطقها إلى اسمي، عفويتها وتلقائيتها، وصارت كل النساء بعيني ليلى.

يُحاول الكثيرون تجميل صورتهم دائمًا مع الآخرين وقت اللقاء بهم، لكن الأجمل أن نبدو على طبيعتنا التي خُلقنا عليها، لأننا سنبدو رائعين ببساطتنا في نظر أحبابنا وعاديين جدًا مهما تجملنا في نظر الباقي، ومن يعشقنا صدقًا، سيعشقنا بالرغم من عيوبنا وليس من أجل ميزاتنا، فلا تجمل ولا ادعاء في الحُب لأن مرآته ليست بعمياء، لكنهم أعين البشر.

قرّبت يدي من يدها ولم أكن يومًا جريئًا هكذا، وكتبت على كف يدها اليسرى..

«**و حـ شـ تـ يـ نـ ي**» وكانت هذه أول كلمة حُب بيننا، هذه الكلمة التي سبقت كلمة «**بحبك**» وكأنني قصدت بها أنني انتظرتها كثيرًا قبل أن ألقاها إلى الحد الذي جعلني أفتقدها ودفعني إلى الإقرار بتلك الكلمة في أول لقاء يجمعنا، وكأننا تلاقينا قبل ذلك الحين.. قبل مولدي ومولدها وقبل مولد كُل البشر!

قلت بهمسٍ: أول مرة شوفتك فيها.. حسيت إنك مُختلفة!

سألتني: مختلفة إزاي يا أستاذ أدهم؟

قلت برجاء: بلاش كلمة أستاذ دي يا ليلى..

استجابت لطلبي برفع الألقاب لكنها بين حين وآخر كانت تنسى وتعود لتنطق «**أستاذ**» ومع الوقت صارت تُناديني « **أ د هـ م**» دون أستاذ، وأحببت اسمي منها.

كررت السؤال: مُختلفة إزاي يا أدهم؟

أجبت: أحلامك مالهاش آخر.

قالت مُبتسمة: في غيري كتير كدا.. يبقى أنا لا مختلفة ولا حاجة!!

قلت حاسمًا الأمر: كفاية في عيني أنا مُختلفة.

اختلاف ليلى كان في كُل شيء.. فلم تكن لي كأي فتاة عادية، فمعها وبجانبها أرى جمال الأشياء وكأن عينيها نافذتي المشرقة على العالم، لمسة واحدة منها تُذيب الجليد وكلمة منها تُنطق الحجر، وكنت قبل أن ألقاها كالجليد والحجر، أظن أن كُل ما بها خُلق لأجلي وكل ما بي قد خُلق لأجلها.

كانت نظراتي لها تُربكها، وتُخبرني بلطف: ممكن تبص بعيد؟ شايف المركبة دي شكلها حلو أزاي؟ شايف أنوارها اللي بتتعكس على مية النيل!!

علمت أنها تُريد أن تُشغلني عنها بأي كلام تنطقه وبأي حدث من حولنا، وقلت «**أيوه**» وفي الحقيقة لم أرى كُل هذه الأشياء في حضرتها، لم أر أحدًا غيرها، ولازالت عيني تُحدق بتفاصيل وجهها الطفولي، ثم قالت:

ـ مش عارفه إزاي الناس اللي في المركبة دي مش خايفين وهما كدا في وسط المية وفي الوقت دا من الليل؟!

سألتها: وأنتِ خايفة يا ليلى؟

قالت بطمأنينة: أنا أول مرة أحس بالأمان كدا في حياتي كُلها..

اندهشت لأمر قلبي، دقاته غير منتظمة وسريعة، أريد أن أعرف مشاعرها تجاهي، أريد أن أطمئن على مكانتي لديها أو حتى تخبرني على الأقل أنه لا يوجد رجل في حياتها غيري، لكنها تكابر بالاعتراف بحبها بالرغم أن عيونها قد فضحت ما بداخلها وأقرت، وكنت طامعًا للمزيد.. متعجلًا الأمور، وكانت ليلى على عكسي تمامًا.. تتمهل اللحظة لتحيا تفاصيلها؛ لأن كل لحظة بعمرنا تمضي بلا عودة أو تكرار، فكل اللحظات مُختلفة وان تشابهت.

كان الوقت عدونا الأكبر تلك الليلة، طلبت مني العودة ورفضت تناول العشاء معي في المطعم المجاور بسبب تأخيرها، فالساعة قد تجاوزت العاشرة مساء، ساعتين مرا كأنهم دقيقتين، أكره الوقت عندما يأبى الانتظار، أكرهه عندما يسير عكس ما نرجوه، فإن رجونا قدومه ومُضيّه.. يمر ببطء شديد، وإن رجونا تمهله في لحظات نحياها بسعادة.. يمضي سريعًا، هكذا هو الوقت دائما وأبدًا يُخالف أمنياتنا كقلوبنا عندما تُخالف تفكير العقول.

سيرنا قليلًا حتى وصلنا لمكان سيارتي وجلست ليلى جانبي، وشغّلت الكاسيت على أحد المطربين وكان يُغني «**في جوه قلبي حاجة مستخبية، كل لما آجي أقولها فجأة مش بقدر**»..

وكأن هذه الكلمات كُتبت لأجلنا وصاحبها.. يُغنيها لنا، كل حرف بها يصف حالتي معها الآن.. فهناك بالفعل كلمة داخلي أود أن أنطق بها لكنني أتراجع، ثُم عُدت من شرودي وأكملت سماع الأغنية «**أنا صعب أعيش حياتي وأنت عني بعيد.. كانت حياتي ناقصة جيت تكملها.. فرحة لُقايا بيك بتبقى زي العيد**».

آآآه يا ليلى لو تعلمي مدى سعادتي بجانبك هذه الساعة ومدى تعاستي بعد دقائق عندما تتركيني، آآه يا ليلى لو تعلمي أن حياتي قبلك كانت ثابتة بلا حركة، جئتِ لتُكمليها.. وصار جسدي لا وزن له يُحلق بعيدًا عن الأرض، كطائر يلمس بيده السُحب والسماء. آآه يا ليلى لو تعلمي كم أحببتُكِ!!

انتهت الأغنية التي تشاركنا في سماعها والإحساس بها، وفتحتُ كف يدها ثانية وكتبت ثاني كلمة بها «**بـ حـ بـ ك**»، كُنت أرسم الكلمة كأمهر رسام، بريشة سبابتي.. وحينها حركت كفها الرقيق على وجهي وهمست بصوت لم أسمعه بأذني بل سمعته بقلبي: «بحبك يا أدهم.

غريبة أقدارنا.. تجمعنا بأشخاص لم نكن يومًا نتوقع أن نلتقي بهم، ونتبادل بينهم أحاديث الهوى، نعشق كل التفاصيل من حولنا، تبهرنا البدايات، تُنسينا واقعنا، وتأخذنا نحو خيال أجمل بكثير، نحيا كما يحلو لنا، هنا نضحك ونلعب ونلهو.. هنا نقف ونتحدث ونسير.. هنا نصمت ونهمس ونعترف.. هنا نحيا ونُحب.. وهنا لن نفترق!!

تكررت اللقاءات والصدف بيننا.. وفي كل مرة أعرف شيء لم أكن أعرفه عن أدهم من قبل، وفي كل مرة أيضًا تتجدد مشاعرنا.. حتى سألته:

ـ لو تعرف كلمة أكبر من كلمة بحبك.. قولهالي عشان أقولهالك!!

فكانت هذه الكلمة أقل بكثير من إحساسي به، ووقفت كُل كلمات العالم عاجزة على شفاهي، ترفض أن تصف حالتي معه أو تُعبر عن جزء بسيط مما بداخلي، تعلمنا معًا كيف يجب أن يكون الحب؟!

علمني أدهم أجمل عادات.. في آخر دقائق من كل مرة نلتقي بها يفتح كف يدي ويكتب عليها، ويظهر لي ما يكتبه بوضوح شديد، وأظل أقرأه بعد الرحيل وحتى اللقاء القادم ونقش كلمات أخرى، ألقيت بنظارتي جانبًا، فلست بحاجة لارتدائها وصرت أرى الأشياء أكثر وضوحًا دونها..

حين نكون معًا.. نضحك كما لو كانت حياتنا خالية من المشكلات، وكأن السلام عنوان العالم، لا حرب، لا نزاع، لا عنف، وحين نبتعد.. نتألم وكأننا نحتضر والموت يقترب.

صباحي يُشرق شمسه عندما أرى اتصاله كي يُخبرني «**صباح الخير**» لكن هذا الصباح لم يكتف بتلك الكلمتين فقط، بل طلب مُقابلتي الساعة الخامسة في محطة رمسيس قبل قدوم قطار الفيوم، لأن المؤسسة التي يعمل بها كلفته بمتابعة مدرسة فقيرة في إحدى القرى هُناك بحاجة إلى خدمات تعليمية، وطلب شيئًا أخر مني وكان مُحرجًا من طلبه:

ـ محتاج حاجة منك تكون معايا علطول في كل مكان أروحه من غيرك..

وطلبت منه نفس الشيء.. شيء بسيط منه يظل معي دائمًا أينما ذهبت.

وبعد المدرسة تجولت محال وسط البلد، أنظر في الفتارين عن هذا الشيء الصغير الذي يتمكن أدهم من حمله في كل مكان يذهب إليه ويُذكّره بي، وكأنني أبحث عن حل لُغز صعب، وبعد البحث والتفكير، حليت اللُغز بتقليدية شديدة، فلست على دراية تامة بهدايا الرجال، اشتريت ساعة ذهبية ووضعتها داخل علبة قيّمة ووضعت الاثنين في حقيبة هدايا صغيرة وسكبت قطرات من رائحة العطر الذي أستخدمه، كي يستنشقه ويستحضرني بخياله عندما يفتح العلبة.

تأخرت كثيرًا على أدهم، يتصل بي بعدد الثواني، يستعجلني قبل أن يتحرك القطار، لكن الشوارع كانت مُزدحمة والعربة التي أركبها تسير ببطء من شدة الزحام، الساعة الآن الرابعة والنصف.. صارت الخامسة إلا الثُلث ثم إلا الربع، باقي ربع ساعة فقط ويتحرك القطار، وصلت بالعربة حتى شارع رمسيس وهنا وقفت العربة تمامًا بعدما أمر ضابط المرور بوقوف صف العربات كلها

لحين سير الصف الآخر، لم أحتمل صبري، نزلت من العربة، وجريت بين الناس على آخر أنفاسي، حقيبتي في كتفي، وهدية أدهم بيدي، وصلت لباب المحطة الكبير، وقفت في طابور للدخول، وأنا أستعجل مَن أمامي، وسألت أحد العاملين عن رصيف القطار المتوجه إلى الفيوم، وأخذت إجابته من على شفاهه وجريت، وكان القطار قد أتى بالفعل وبحثت عن أدهم أمام كل العربات، فوجدته ينتظرني أمام عربته.. وحينها التقينا!!

ضمني أدهم نحوه، عانقني بشدة وكأن المكان يخلو من البشر، وكأنه سيتغيب أعوام وليست أيام، عاد تنفسي لطبيعته بين ذراعيه، بعدما أنهكني الجري، كان الصمت حوارنا لخمس دقائق بأكملهم، ثُم بدأ القطار يتحرك، ومازال أدهم بالخارج، أعطيت له ما طلب وأعطاني ما طلبت، ثُم فتح يدي وكتب «**هتوحشيني**»، سقطت دمعة من عيني على ما كتب، فمسح دمعتي وركب القطار واختفى.. وحينها افترقنا!!

جلست على أحد مقاعد المحطة حتى اختفى القطار عن عيني تمامًا، كان الأمر صعب عليّ، وسألت نفسي: ماذا لو ركبت القطار وسافرت معه؟ هل سيتغير شيئًا في قوانين الطبيعة؟ أم ستحدث الحرب العالمية الثالثة؟ أم ستنقرض البشرية؟ أو ربما ستشرق الشمس من مغربها؟ وأجبت: لا شيء سيحدث.. لكنه الخوف!!

الخوف فقط يمنعني أن أرحل إليه ومعه، أن أعترف بحبي على مسمع ومرأى، وفتحت العُلبة الصغيرة التي أعطاها أدهم لي، ووجدت ورقة وقلم،

مررت يدي على القلم كأنني أستحضر لمسات أدهم عليه، وفتحت الورقة وقرأت ما بها بتأثرٍ شديد:

ـ مُمكن تكون هديتي ليكِ بسيطة.. لكن القلم دا غالي عليا لأنه هدية من طفل يتيم عندي في الجمعية، حافظي عليه وخليه معاكِ على طول في شنطتك..

ثُم قلبت ظهر الورقة وأكملت قراءة ما كتب:

حُبك يا عميقة العينين تطرف، تصوف، عبادة، حبك مثل الموت والولادة صعب بأن يُعاد مرتين، عدي على أصابع اليدين ما يأتي..

فأولًا، حبيبتي أنتي.

وثانيًا، حبيبتي أنتي.

وثامنًا، وتاسعًا، وعاشرًا، حبيبتي أنتي!!

نظرت إلى أصابعي، أعد عليها كما طلب أدهم من خلال كلمات «**نزار القباني**»، وصارت هذه عادة جديدة من عادات الحُب التي تعلمتها على يديه، كلما افتقدته.. أعد على أصابعي عشر مرات بكلمتي «**حبيبي أنت**».

لم انتبه للوقت، لقد غربت الشمس، وها أنا أجلس دونك يا أدهم في المحطة وكل الأحزان تنبت في قلبي، وسألت: ماذا صنع رجل مثلك لامرأة مثلي كي لا تطيق الحياة دونك؟

يجري القطار سريعًا كالعمر، يأكل كل شيء أمامه، لا يعطي فرصة الخوض في تفاصيل الطريق الذي أتأمله، فتحت هدية ليلى واخترقت رائحتها أنفي، فآتاني وجهها يبتسم، ورقصت النجوم على موسيقى الليل الخافتة.

أحبك يا ليلتي.. وحبك علمني كيف تصير الحياة مُبهجة في قربكِ؟

أحبك يا ليلتي.. وحبك علمني كيف يكون الصبر في بُعدك؟

أحبك يا ليلتي.. وحُبك علمني أن أجمل الصُدف والمواقف تأتي قدرًا.

أحبك يا ليلتي.. فأنتِ قدري!

وضعت ساعتها حول يدي، ساعة مثلها كوردة في قلبي، وصرت أقرأ الورقة التي كانت مع الساعة طوال الطريق حتى وصلت على الرغم أنها جملة واحدة:

ـ وإذا سألوني عنك سأقول: نجم هبط من السماء واستقر في قلبي!!

وصلت للفندق الذي سبق وأن حجزت به قبل وصولي للفيوم، كل ما بالغرفة على أعلى مستوى من أثاث وفرش وخدمة، لكن ما فائدة كل هذا وليلى لم تُشاركني أوقاتي؟ وقفت أمام النافذة، تبدو البُحيرة ساحرة جدًا، فلكل موجة حكاية مليئة بالأسرار، العاشقون هم فقط من يتمكنون من حلها، تذكرت منظر النيل عندما كنت مع ليلى، تلك التي اشتقت إليها، ولم يمر على بعادنا غير ساعات قليلة، ودفعني شوقي للاتصال بها في هذا الوقت من الليل وساعتها في يدي تُخبرني أنها الواحدة بعد المُنتصف.

كان هاتفها مُغلقًا، من المؤكد أنها نائمة، وأنا الذي تحجب صورتها النوم عن عيني، ماذا لو انطوت المسافات وتكون جانبي الآن ترسم أحلامي بريشتها كوشم على صدري حتى الفجر؟ ماذا لو نمت واستيقظت على صوتها؟ طويل الليل دونك أيتها القريبة البعيدة!!

أتى الصباح يُداعب بنوره عيني المتيقظة، جسدي مُنهك من قلة النوم، لم يعد بوسعي الانتظار، انطلقت حيث مكان المدرسة التي كُلفت بمُتابعتها، شرحت لإدارتها صفتي الوظيفية، وأنا هُنا لتقديم المُساعدة دون أي مُقابل، ورُحب بي واستقبلوني مُدرسيها بالضيافة، دخلت كل الفصول، الإمكانيات التي بها لا بأس منها، ليس كما توقعت فقيرة ومعدومة، لكن هُناك شيء آخر لفت انتباهي؛ أن مُدرسيها غير مؤهلين تربويًا، والأسلوب الذي يتبعونه بالتدريس.. تقليدي جدًا يعتمد على الحفظ والتلقين ودور المُعلم به أساسي، أما المُتعلم ما هو إلا مُتلقي للمعلومة دون فهم ودوره غير إيجابي وغير فعّال، أغضبني هذا الأسلوب ونحن في القرن الحادي والعشرين ولازلنا نتبع الطُرق التقليدية في مدارسنا دون استخدام أي استراتيجيات التعلم النشط والتدريس التوظيفي، لذلك لم أندهش أبدًا عندما خرجنا من الترتيب العالمي للتعليم.

كتبت تقريري وذهبت للمدرسة المُجاورة ووجدت بها نفس الوضع الكائن في سابقتها، وعلمت أننا من نُخطأ في حق أبنائنا بقصدٍ وبغير قصد مرات ومرات، عندما نُلقي بهم في مدارس غير مهيأة من ناحية المبنى والفصول وغُرف الأنشطة، وعندما نُقدمهم لمعلمين تقليدين يعاملونهم كطفل الماضي

وليس طفل الانترنت والهواتف الذكية، عندما نقتل إبداعاتهم داخل غرفة صف صغيرة بها كم كبير من الطلاب أمثالهم، يقف مدرسوها بالعصا على الرؤوس، لذلك الطفل المصري هو أذكى أطفال العالم حتى عامه السادس إلى أن يصل لسن المدرسة وعندها يصير كالحمار الذي يحمل أسفارًا.

مر أسبوع بأكمله بالفيوم، النهار أقضيه في مُتابعة المدارس، والليل أقضيه على البُحيرة في كتابة تقاريري، وكأنني لم أهتم، ولم أفكر، ولم أتمنى.. وأحتمل!!

أتقمص دور العابر في الهوى، أو دور رجلًا فقد ذاكرته أثر حادث سيارة، ولم يتذكر حبيبته، وما أصعب ذاك الإحساس عندما يظل دفين داخلك.. يزلزلك، ينهل منك، يقسو عليك.. لكنك تُظهر العكس تمامًا عندما تلتقي بأحدهم، وعندما أصير وحدي.. أنهار يا ليلى!

اتصلت بها كثيرًا، كل يوم، كل ساعتين، كل ساعة، هاتفها دائما مُغلق، وكان الأسبوع يأبى أن يمضي، أخشى أن يكون قد لحق بها مكروه منعها من مُحادثتي، لعل المانع خير!

لكن لا بأس.. في الغد سأعود إلى القاهرة، وسأذهب إلى بيتها.. اطمأن عليها، ولكنني لا أعلم عنوان بيتها!

طرأت فكرة أخرى برأسي.. سأذهب إلى مدرستها بحجة المُتابعة، أشعر أنني عندما أراها سآخذها بين ذراعي بشدة، أعوض فُقداني إليها طوال تلك الساعات الماضية.

ولِمَ الانتظار للصباح؟ أسرعت نحو الفندق وجهزت حقيبتي وذهبت للمحطة وركبت القطار المُنتظر وسافرت ليلًا!!

إلى جانب زميلاتي بالمدرسة أجلس، نحكي ما حدث بأمسنا، كل واحدة بدورها أو بأدوارٍ مختلفة، ونضحك بقلب خالٍ من الهموم، ننسى معًا مشاكلنا التي تنتظرنا خارج أسوار المدرسة، ننفصل تمامًا عن أحزاننا، ما عدا «**سهير**» تجلس بيننا غير مُنصتة وغير متحدثة، نحاول إخراجها من حالتها.. ونفشل، فمن رأى هموم غيره، هان عليه همه!!

تتركنا سهير وتجلس في أحد الفصول الخالية من الطلاب الذين هم بالخارج بحصة الألعاب، تُمارس عادتها اليومية، وتخرج من حقيبتها جوابًا من زوجها كي تقرأه، أشعر أنهما مازالا مخطوبين وليسوا زوجين وبينهم ثلاث أطفال، أعشق قصتهما معًا، فالأجمل من الحب نفسه.. الإخلاص في الحُب.

وقطعت انفرادها مع كلمات زوجها دون أن أطرق باب الفصل، وقلت مُشاكسة: ـ الله يسهلك يا سُهير..

قالت بعد تنهيدة: لحد إمتى.. لحد إمتى يا ليلى؟

قلت بتأثرٍ: ربنا كبير!!

قالت بدموع عينيها: حمدي وحشني.. يوم واحد كل أسبوع أو أسبوعين مش كفاية عشان أشوفه فيه.. أنا وأولاده محتاجين لوجوده جنبنا، بيته محتاج له يا ليلى.. وأنا لوحدي والحمل عليا تقيل..

هذه المرة الأولى التي أسمعها بتلك النبرة المُحبطة، وكأن صبرها قد نفذ، وفقدت الأمل في خروج زوجها المُعتقل.

قبل كل جلسة.. أراها تتحدث بأمل ويقين أن الحكم لصالحه وحتمًا سيخرج، وتندر لله ليلة كبيرة وسوف تدعوننا بها جميعًا، لكن بعد كُل جلسة ويُقرر له تجديد الحبس.. أراها هكذا مهمومة!!

معرفتي بمثل هذه الأمور السياسية قليلة وخاصة الفترة الأخيرة، ابتعدت تمامًا عن كل ما هو مُنافق في باطنه وظاهره، لكن كل ما أعلمه من خلال مُعاشرتي لسهير طوال أكثر من خمس سنوات عمل، أنها تُحب الخير ولا تتحدث إلا به، زوجها طيب السُمعة والأثر، سلاحه القول الحسن، يسير دائمًا جانب الحائط، لا يعرف إلا مكانين في حياته.. مدرسته التي كان يعمل بها وبيته، وبالرغم من هذا كله تم القبض عليه من داخل مدرسته وإخفاؤه لفترة حتى عن أهله، تلك الفترة التي ظلت سهير تبحث عنه في كل الأماكن وكأنه طفلها التائه حتى حسبته أنه بعدادِ الأموات، وبعدها علمت أنه خلف الأسوار بتهمة لا تهمة لها، اطمأنت لأنها عرفت أنه لازال حيًا.. ولكن ما الفائدة؟ يحيا داخل زنزانة مع المتهمين، ففي بلادنا تتساوى الرؤوس، البريء مع المُذنب، ويضيع العمر وتمر الأيام حتى أن يعتاد من بالداخل على سجون الظُلم ويفقد الأمل، ويعتاد من بالخارج على فراقه ويحسبونه من المفقودين وهم أحياء!

طرقت «**نرمين**» زميلتنا بالمدرسة باب الفصل وقطعت حديثي مع «**سُهير**» وقالت بسخرية: في ضيف مُنتظرك في مكتب المُدير يا ليلى وطلب يقابلك بالاسم.

فكرت للحظة أن يكون هذا الضيف هو نفسه أدهم، وعدت سريعًا من شرودي وأنكرت هذا.. فأدهم في مأمورية عمل خارج القاهرة، وإن كان قد عاد من سفره هذا، فمستحيل أن يكون ذاك الضيف!!

استعجلتني «**نرمين**»: يلا بسرعة يا ليلى.. ما ينفعش تتأخري كدا.

أخذت كشكول التحضير معي لربما يكون موجه الموسيقى الجديد، وحتما سيكون حاله كحال باقي موجهي المواد الأساسية والأنشطة والمسئولين في التعليم جميعهم، شغلهم الشاغل البحث عن الأوراق والتحضير، ويغضون الطرف عن المجهود الفعلي على أرض الواقع، ويصفقون لمن يُسجل ويدّون لا لمن يجتهد ويعمل، فإن أراد المُعلم أن تُرفع له القبعة عليه بالتحضير أولًا بأول.

وتوجهت نحو مكتب المُدير، وهناك وجدت أدهم ينظر إلى ساعته الذي أهديتها إليه، وعندما رفع رأسه وجدني أمامه، وانخلعت قلوبنا من أماكنها عندما تلاقت الأعين، وقال المُدير: تعالي يا ليلى.. الأستاذ أدهم عايز يسألك عن شوية حاجات!

ألقيت التحية: السلام عليكم يا أستاذ أدهم!!

رد السلام وقال: محتاج أعرف منك.. هل بدأتِ تستخدمي الآلات الموسيقية وتُفعليها داخل الفصل؟

وقبل أن أجيب.. استأذن المدير كي يُتابع سير اليوم الدراسي من خلال مروره السريع على كل الفصول، وأجبت أدهم: بدأت أفعّلها يا أستاذ أدهم..

صوّب أدهم عينيه على الطرقة الطويلة بالخارج واطمأن بأن لا أحد قادم وقال عاتبًا: ماتصلتيش ليه بيّا.. وتليفونك على طول مقفول، فهميني لو سمحتي!

قلت مُبررة: كنت مشغولة شوية..

قال مُعترضًا: أنتِ بتكذبي يا ليلى.. قوليلى مالك؟

صارحته: أنا بهرب يا أدهم.. بهرب من حاجة أو من حد!

قال: هتفضلي لحد أمتى هربانة؟

- لحد ما أرجع لعقلي..

- وبتهربي من مين يا ترى؟

- بهرب من حد عشان أكلمه، بهرب منه له..

قال ضاحكًا: أنا حاسس إني بكلم مُحسن بيه بتاع رأفت الهجان..

ضحكت على رده وكنت قد نسيت التبسم طوال أسبوع مضى، كلمة واحدة منه قادرة على تحسين حالتي للأفضل.

حقيقة.. لم أتوقع تصرفه هذا، زيارته للمدرسة مُفاجئة أدهشتني، تحجج وافتعل سببًا لرؤيتي، ففي بعض الأحيان يدفعنا الحب إلى ارتكاب الحماقات دون تفكير، نترك عقولنا جانبًا ونحيا بجنونٍ، فالحب والجنون وجهان لعملة واحدة.

قال بثقةٍ: الليلة دي هشوفك في نفس المكان والمعاد.

لم أرد عليه لا بالموافقة ولا بالرفض.. فقط استأذنت منه عندما بدأ المكتب أن يمتلئ بالمدرسين، فلقد اقترب موعد الانصراف، ودعته بسلام الأعين دون كلام، وبداخلي أعلم أن هذه هي المرة الأخيرة التي سأراه بها، فامرأة مثلي لا يجب أن تَحِب أو تُحب.

غريبة أمرها ليلى، أشعر أنها تُحبني كما أحبها، عيناها تُخبرني بذلك، لكنها دائمة الهرب، فكلما اقتربت منها وجدتها تبتعد، وتفتعل الأسباب التي تُعينها على البُعدِ، لم أحتمل عذابي في بُعدها كل يوم، ليتها تقترب!!

أعلم أننا على قدر الحُب سنتعذب، نتعذب عندما لا نرى أحبابنا وقتما نحتاج، نتعذب عندما ننظر جوارنا ونرى غيرهم، نتعذب عندما نظل جسدًا على الأرض بلا روح دونهم، نتعذب عندما لا نعلم شيئًا عنهم وآخرون من يحق لهم ذلك.. هل حالتهم جيدة أم بهم مكروه؟ هل يفكرون بنا ونأتي على أذهانهم أم مُنشغلين عنا؟ نتعذب عندما نشعر بالوحدة دونهم وإن كنا نجلس وسط المئات، نتعذب عندما تأتي لنا أفكارًا شيطانية ونظنهم يتحدثون مع غيرنا بدلًا منّا، نتعذب عندما ندرك أن المسافات التي بيننا لا ترحم قلوبنا، نعم.. على قدر الحُب سنتعذب!!

كأني ميت دونك يا ليلى.. لكن الذنب ليس ذنبك، فقلبي هو ذلك المُذنب الآثم، الذي أختارك دون إذني، فكيف هو قلبي ويصير ملكًا لكِ؟ كيف هو قلبي ويسير عكس طريقي بل ويأمرني أن أسير معه؟ كيف هو قلبي ويجعل من عقلي عدوًا له؟ فقلوبنا لم تُشبهنا وتميل لمُخالفتنا دائمًا وأبدًا!!

لقد تعبت من البحث عنها في كل مكان، وفي كل مرة أتابع بها مدرستها لم أجدها، حتى زيارتها للجمعية لم تُكرريها ثانية، سأحترم رغبتها في البُعد وإنهاء قصتنا قبل أن تبدأ، وسأعود لحياتي كما كانت قبلها، لقد قررت حقًا أن أتناساها، فما أسهل الكلام عن اتخاذ القرار، وما أصعب تنفيذه، وما أسرع انتهاء قصة حُبنا يا ليلى!

قبل اليوم، كُنت أكتب أشعارًا لامرأة مجهولة، أما الليلة أكتب إلى ليلى، أكتب إليها وأعلم أنها لن تقرأ ما أكتبه، أكتب إليها وصورتها أمامي على الورق، ألومها لأنها قتلتني داخلها وقتلت نفسها داخلي، وفي اللحظة التي يأتني بها النوم.. أجري إلى الفراش، قبل أن يُغيّر رأيه ويرحل عني هو الآخر، ففي النوم شيء من الهرب ومضي الوقت وراحة من تفكير القلب.

مرت الأيام والأسابيع والشهور، أنتقل من محافظة لأخرى ومن مدرسة لأخرى، أهرب من تفكيري بها بالسفر، أزور مدارس وأتابع أخرى وأكتب تقاريري، وقتي كله للعمل، وعندما يزورني طيفها.. أقنع نفسي أنها لم تكن!!

تطور مجال العمل بالمؤسسة، فلم تعد قاصرة على إمداد المدارس بالخدمات المادية فقط، بل وصل الأمر إلى تنمية المُعلمين مهنيًا بمنحهم تدريبات تخص طرق التدريس داخل الفصل، فما فائدة تجهيز الفصل ومُعلمه يُعاني قصورًا في أدائه المهني ويشرح بطرق التلقين؟

أعلنت مؤسسة «**هيا نتعلم**» عن حاجتها لعاملين آخرين بها.. من مُدربين وأخصائيين تنمية مهنية، هذا الأمر الذي أبهجني كثيرًا كموظف بها، فكل يوم أشهد مع زملائي على نجاح المؤسسة ونجاحنا، والسبب في هذا يرجع لزميلتنا «**نور**» المُديرة الشابة التي تُلقي داخلنا بذور الأمل وتتركنا لحصاد ثمارها أينما ذهبنا.. فالعمل الناجح أساسه مُدير ناجح ومحبوب ومُتفاهم وعاملين مُتعاونين ومُتفاعلين والعكس صحيح.

عُدت من رحلة عملي الأخيرة وذهبت مُباشرة إلى المؤسسة حتى بحقيبة سفري قبل أن أعود للبيت، وحينها علمت بمرض أحد الزُملاء بالمؤسسة الذي منعه من السفر إلى مدارس أخرى بالصعيد كما كان مُقرر له، فطلبتُ من المُديرة أن أنوب عنه، لكنها قالت: أحنا مُمكن نشوف حد تاني لأنك لسه راجع من سفر.. والمأمورية دي لقُرى بعيدة في الصعيد وهتاخد مدة كبيرة تقريبًا من شهرين لتلاتة.. فكر يا أدهم كويس!!

قلت دون تردد: فكرت وأنا اللي مسافر.

أخذت تذكرة السفر من المديرة وذهبت للمحطة فلم يتبق غير نصف ساعة على تحرك القطار لمحافظة المنيا، وهناك اتصلت بالبيت وأخبرتهم بما حدث من سفرٍ مُفاجئ وكأنني أُجبرت على هذا دون اختيار.

لم يتمكن البُعد من نسياني لأدهم، ولم يقوى الزمن على محو أثره داخلي، أنتظر بشوق صدفة قادمة وأتمنى ألا تأتي، ألقي العتب على نفسي؛ لأنني من أختار إنهاء كل شيء من البداية وقبل الخوض في علاقة نهايتها الفشل وفي نفس الوقت أصفق على ما فعلت، أستحضر دومًا شكل مشاعري معه، فمن وقت لآخر أبسط كف يدي وأقرأ دومًا ما كتبه بحبر إصبعه الذي لن يجف أبدًا «**وحشتيني.. بحبك**»، ومع الغروب أستمع إلى تلك الكلمات التي تشاركنا في سماعها سويًا في ليلة ما.. «**في جوه قلبي حاجة مستخبية**»، وأعود لأقنع نفسي أن الحُب ليس كل شيء في حياتنا، من الممكن أن يكون مُهمًا.. لكن هناك أشياء أخرى أهم منه وأنه ليس من أولوياتنا وقد يكون مضيعة للوقت!

أنجزت رسالة الماجستير في وقت قياسي، رُبما يعود هذا بسبب تفرغي التام عن العمل بعدما أخذت إجازة بدون أجر لعام كامل، كي لا ألتقي بأدهم ثانية عند متابعته لمدرستي وقطعت كل الخيوط التي قد تصله بي، إلا خيط واحد قد فشلت في قطعه وكان على شكل شُريان بقلبي، وأخذت موعد من مجلس القسم بالكلية لمناقشة الرسالة بعد أسبوع من اليوم.

لم يخلف عامر توقعاتي أبدًا، ولو أنني تمنيت أن يخلفها مرة واحدة، اتصلت به: عامر.. أنا محتاجة وجودك جنبي بُكرة مُناقشة رسالتي.. محتاجة مُساندتك ليّ وتشجيعك في اليوم دا.. محتاجة لك أوي!

وكان رده صادم مع أنني كُنت أعلمه: مبروك يا حبيبتي.. لكن أنا بُكرة مش هقدر آجي، مضغوط جدًا في الشغل.. هكلمك بعد ما تخلصي!

فكرت بهدوء من أمري وقلت: هذه عادته كُلما احتجت إليه.. تخلى، وكلما طلبت مُساندته.. رفض، وكلما اقتربت خطوة.. ابتعد مسافات، فما الجديد إذًا.. هذا هو عامر وهذه حياتي معه.

وسألتني أمي عن عامر: قُلتي لعامر يجي يحضر مناقشتك؟

ـ كل وقت بيمر عليّ يا أمي وبحتاج فيه عامر ومش بلاقيه، بيموت جوايا إحساسي بالاحتياج له وبيخليني أقدر أعيش من غيره ولوحدي.. أنا مش محتاجة عامر جنبي دلوقتي وبعدين.

لكن لا بأس، غدًا سأحقق حلم من أحلامي الذي طالما تمنيته، فلا شيء سيكدر صفو فرحتي، ويكفيني وجود أمي وزميلاتي وأهلي جميعهم، فأنا لأحلامي وعامر لعمله، وأدهم للنسيانِ!

جلست على المقعد المُخصص لي على جانب المنصة التي كان عليها منضدة طولية عليها أربعة من أساتذة الجامعة من بينهم مشرفين ومُحكمين على رسالتي، بدأت الكلام بتوجيه شُكر لأمي وأبي وحينها دمعت عيني وتأثر كل الحضور، ولم أنس أن أشكر كل من تعب معي لإخراج هذه الرسالة للنور والدكتور «**هاشم**» على رأس القائمة، ودخلت بعدها مُباشرة في الحديث عن الرسالة بوجه عامة من مُقدمة وأهمية وأهداف وتساؤلات الدراسة وصولًا للفصل الأخير وعرض أهم التصورات المُقترحة وكان من بينهم إلقاء الضوء على نماذج ناجحة في الحياة من أزواج متفاهمين وأبناء أسوياء، وأوضحت أهم الأسباب التي يجب الوقوف عليها قبل اتخاذ خطوة الزواج،

وأهمها أن يكون الرجل مُناسب للمرأة في الطباع، فكلما كانت طباعهم متقاربة كلما قلت المشكلات، وعلى الرجل أن يراعي احتياجات زوجته المعنوية لا المادية كي لا يُشعرها أنها مجرد كماليات بحياته فقط، ويتخذ الرسول قدوة حسنة في المعاملة مع أهل بيته، وأن يعلم جيدًا أن اللقمة التي يضعها في فم زوجته كالصدقة وأن النساء شقائق الرجال، وعلى كل رجل أن يعلم أنه يجب عليه أن يكمل النقص بحياة امرأته لا أن يشعرها بالنقص، وعلى المرأة أن تُقدر دور زوجها وتتقن فن المعاملة، وذكرت أثناء مناقشتي لحالات موجودة بالفعل معنا في قاعة المؤتمرات قد استعنت بها في رسالتي لنماذج ناجحة في علاقاتها ونماذج أخرى غير ناجحة.

وبعد أن استنفذت كل وقتي المحدد للحديث عن مضمون رسالتي، كان الدور لجالسي المنصة وكل منهم برأيه بناء على خبراته العلمية وكنت أسجل كل ملاحظاتهم، وفي النهاية وبعد أكثر من ساعتين في المناقشة والحوار تم رفع الجلسة العلمية والإقرار بمنحي درجة الماجستير مع الشرف وطباعة وتوزيع رسالتي بمختلف مكتبات الجامعات المصرية، وبعد المُناقشة سلمت بتحمسٍ على أستاذي الدكتور هاشم وقال كما لو كان أبي: «**دايمًا هتلاقيني معاكِ وبساندك في طريقك العلمي ومشوارك في الحياة يا بنتي بكل اللي أقدر عليه**».

كانت فرحتي لا توصف لكنها ناقصة، بسبب هذا الرجل الذي يُسمى زوجي ولا يهتم لأمري، حتى خطر ببالي أنه من المفترض أن أدرج حالتي ضمن الحالات التي ذكرتها برسالتي من أزواج على الورق فقط.

وعند بوابة الجامعة الرئيسية.. قابلت صديقة عُمري «**نور**»، لم نكتف بسلام الأيد بل كان العناق، عناق واحد طويل.. لخص سنوات من البُعد والفقدان، وسيرنا معًا حتى النادي المُقابل من الجهة الأخرى للشارع، جلسنا على طاولة بجانب النيل، طلبت نور لنا الغداء، وتبادلنا ذكريات الدراسة الثانوية والنكات، عندما كُنا نتخاصم لأسباب تافهة وبعد ثوان ننظر لبعضنا ونبتسم وكأننا لم نتخاصم، كل أشيائها كانت ملكي، وكل أشيائي كانت ملكها، وفي العودة للبيت بعد المدرسة، أنتظرها تصعد عربتها قبلي لكنها ترفض وتنتظرني أن أصعد عربتي قبلها.. نظل هكذا لساعة وأكثر لم نشعر بها في الشارع، ثم لا نجد حلًا إلا أن تتنازل واحدة منا لأجل الأخرى وتمشي قبلها.

قلت بشوق: وحشتيني يا نور..

قالت بشوق: وحشتيني أكتر يا ليلى..

تحدثنا لثلاثِ ساعات لم نشعر بهم عن الماضي والحاضر ولاسيما المُستقبل، والآن حان وقت الرحيل، وعند عتبات النادي.. كررت طلبها برجاء:

ـ هستناكي يا ليلى بُكرة تيجي تزوريني في المؤسسة وإن شاء الله ترتاحي في الشغل معانا.. أوعدك يا ليلى!!

تحمست كثيرًا للعمل مع صديقتي الطموحة نور، وخاصة أني لازلت في إجازة من مدرستي، ولدي وقت فراغ كبير.

وذهبت في صباح اليوم التالي وقبل الموعد المُحدد بنصف ساعة، انتظرتها في غرفة مكتبها مع ترحيب من كل العاملين معها، وعندما أتت؛ كانت فرحتها

لا توصف لاستجابتي دعوة العمل معها، وبعد التعارف على زملاء العمل الجُدد، جلسنا جميعنا على طاولةٍ واحدة، وتناولنا معًا الإفطار وكان يتكون من الفول والطعمية التي أعشقها مع الخُبز الساخن الذي جعل معدتنا تتأوه جوعًا من رائحته الشهية.

أحببت نشاطهم الشبابي وإخلاصهم في العمل ورابطة الحُب التي تجمع بينهم، وشعرت بالفخر إنني أصبحت جزء من هذه المجموعة وحلقة من تلك الدائرة التي تشع أرواح أصحابها بالحياة والأمل بأن الغد أفضل، وكأن واقع التعليم المُتدني سيتغير على أيديهم، لذلك قررت.. أن أترك بصمة وأثر أينما وُجدت.

عملت بالمؤسسة مُصممة مناهج وخاصة إني أحب أعمال التصميمات والرسوم وتنسيق الألوان وتحديد المحتوى المناسب لنوع التدريب، فوجدت مُتعة كبيرة في هذا، فما أجمل أن تعمل ما تحب وما أصعب أن تُجبر على حُب ما تعمل!!

الصُدفة الثالثة

ليتني أنساها بسفري المتواصل، لكن لا مكان أخطو إليه إلا ورأيتها به تُلاحقني، وكلما قررت أن أنساها.. أتذكرها أكثر، فان المسافات التي بيننا.. لا تُقاس بالكيلومترات أو عدد ساعات القطار، إنما تتلخص في حروف كلمة قدر!

طالت رحلة عملي الأخيرة لأكثر من شهرين، حتى ملامحي قد تغيرت بعدما خف وزني عشرة كيلوجرامات، لا وقت للنوم ولا وقت للطعام.. كل الوقت للمتابعة صباحا وكتابة التقارير ليلًا، وكل الأوقات «**لها**».

لم أتمكن من الذهاب للمؤسسة بعد عودتي من السفر مُباشرة، فذهبت للبيت كي أستريح أولًا، وأجّلت إرسال التقارير لليوم التالي، نمت كما لو أنني لم أذق النوم من قبل.. افتح عيني من حينٍ لآخر، ولا أعلم إن كنت في الصباح أم المساء، حتى رن منبه الهاتف ليعلن أن شمس اليوم التالي قد أشرقت.

تجلس من بعيد كما لو كانت «**ليلى**»، هل وصلت إلى الحد الذي أصبح طيفها يُلاحقني حتى في مكتبي؟ سلمت على جميع الزملاء، فلقد افتقدتهم طوال الفترة الماضية وسلمت عليّ نور بكل ترحاب:

ـ إزيك يا بطل وحشتنا كلنا..

لم أرد على نور وتسمرت عيني نحوها.. نحو الطيف الذي يشبهها، اقتربت منها واقتربت مني، تيقنت انه ليس طيفًا، بل كانت «**ليلى**» بالفعل، حقيقة أمامي؛ أجمل من ألف خيال، وما أجمل الصباح عندما نبدأه بوجه من نحب أو بصدفة جميلة غير متوقعة، فما بال صباحي يبدأ بالاثنين!!

عرّفتني نور على ليلى وكأننا لم نكن نعرف بعض من قبل، لازلت مندهشًا وليلى كذلك، ذهب كل منا إلى مكتبه الخاص، وكان مكتبي بجانبها، صدفة أخرى من تخطيط القدر، يجب عليّ ألا أتعجب للصدف بعد الآن.

حضورها دمر حُزن شهور في بعدها، أمنع يدي من التسلل ليدها لتضمها بكل قوة، ضمة اشتياق وفقدان وعتاب، لكن المكان لا يسمح، سأعانقها بعيني بين كل نظرة وأخرى، فأصدق احتواء وأقوى.. عندما تحتوي تفاصيل وملامح من تحب بعينيك.. عينيك فقط!!

نادتنا «**نور**» للراحة قليلًا، وكانت ليلى جانبي منهمكة في تصميم محتوى جديد وكُنت منهمكًا بها، جلسنا جميعا وكنا لا نقل عن عشرون موظف بالمؤسسة، نحتفل بعيد ميلاد نور معًا، البعض كان على علمٍ وأحضر هدية وليلى من بينهم، والبعض الآخر لم يعلم ولم يحضر هدية وكنتً من بينهم.

قدمت ليلى هديتها وكانت عبارة عن «**تورتة**» كبيرة عليها شعار المؤسسة وصورة نور وزوجها، وبدأ الاحتفال والتصفيق والغناء، وانشغلت ليلى بتصوير الاحتفال كله، لأنها من عُشاق التصوير وأثبتت للجميع بعد ذلك مرات ومرات دقة وجودة تصويرها حتى أن كلفتها نور بتغطية أي حدث أو مناسبة داخل وخارج المؤسسة بالتصوير، وفي النهاية صورتنا صورة جماعية لكل أفراد المؤسسة كلها بهجة وأمل وتفاؤل، وعُلقت فيما بعد بحجم كبير جدًا على أحد الجدران بالوجهةِ الأمامية للمؤسسة، جميلة تلك الصورة للغاية لأن ليلى من صورتها على الرغم أنها ليست بها.

طالت فترة الصمت بيننا، أسمع داخلها صوت يريد أن يُحدثني وبداخلي نفس الصوت، كل منا ينتظر الآخر بالمبادرة الأولى، ومن المفترض أنا من أبدأ.. لكنني أخشى أن ترفض وتعود لتبتعد ثانية، فوجودها جانبي كزميلة عمل دائمة أفضل من كونها حبيبة راحلة.

طلبت نور أن أتابع مدرسة قريبة في قرية تابعة لمحافظة الفيوم، وطلبت منها أن أستعين بأحد الزملاء في تصوير وضع المدرسة وتحديدًا ليلى، فلم تمانع ليلى طلب نور لتمكنها في التصوير.

ذهبت بعربتي وكانت ليلى تجلس جانبي، لم أقاوم تلك الفوضى التي داخلي، أريد إجابة واحدة كي تُريحني، سألتها: ليه بتعملي فينا كدا يا ليلى؟

قالت: بعدين تعرف..

شغّلت نفس الأغنية التي سمعناها قبل ذلك، وحينها قالت ليلى:

ـ بحبها جدًا الأغنية دي يا أدهم.

ـ عشان بتتكلم عن حاجات حاسين بيها ومش قادرين نقولها، دايمًا بحس ان في سر في حياتك يا ليلى.. يمكن دا اللي مخليكي دايما مني بتهربي..

عادت ليلى لصمتها، وكأنني ذكرتها بشيء قد أزعجها، ووصلنا للقرية وتركت عربتي على مطلع الشارع وأكملت مع ليلى الذهاب للمدرسة سيرًا بعد سؤال أحد من أهل القرية عن مكان المدرسة.

دخلنا المدرسة وفعلت كما أفعل كل مرة عندما أذهب لمدرسة جديدة، قابلت مديرها الأستاذ يونس، وعرّفته عن نشاط مؤسستنا وبعد الترحيب منه، ذهبت لفحص الفصول وكانت ليلى تُساعدني بالتصوير لتوثيق الحالة بشكل مرئي، وهذه الطريقة ستساعدني أكثر في كتابة ومراجعة تقاريري.

وبعد انتهاء توثيقنا للمكان مع انتهاء اليوم الدراسي، أصرّ المُدير أن نُكمل اليوم عنده في ضيافته ودعانا للغداء مع أهل بيته الطيبين.

وبينما كُنا نتناول الغداء، سألت زوجة المُدير «**ليلى**» بطريقة عفوية:

ـ أنتِ مرات الأستاذ؟

وقف الطعام في حلق زوجها وقال:

ـ أُسكتي يا انتصار، دول زُملا في الشغل.. ما تكسفيناش!

غمزتُ ليلى بطرف عيني وقلت كاذبًا:

ـ ليلى مش بس زميلتي في المؤسسة يا أستاذ يونس.. ليلى كمان مراتي!!

ودعنا هؤلاء الطيبين وركبنا العربة قبل المغرب بدقائق، وبعد أن تحركنا بعيدًا عن المكان الذي كُنا به، طلبت من أدهم أن يقف قليلًا، فمنظر الغروب لا يُقاوم، نزلنا من العربة ووقفنا أمام البُحيرة، والبط الصغير يُزين المكان وقرص الشمس ينعكس بِحُمرة شفقه الساخن على صفحة البُحيرة، وكأنها لوحة مرسومة بألوان متداخلة ومتناسقة.

ابتسمت: ليه قلتلهم إني مراتك؟

نظرَ لعيني بقوةٍ: عارفة ابتسامتك دي.. بتنور الدنيا كلها في عينيا، ما تحرمنيش منها يا ليلى!!

كررت: بلاش تهرب من سؤالي يا أدهم.

أجاب: أحنا هنا موجودين في قرية وليها طابع قبلي.. ما كنش ينفع أقول غير كدا، وأنا أخاف عليكِ أكتر من نفسي، وبصراحة كدا أنا صدقت الكذبة دي وتمنيتها حقيقة.

قلت بخجلٍ: وأنا كمان حبيت كذبتك دي.

قال بجرأة: يبقى أنتِ من دلوقتي مراتي..

بعدت عنه خطوتين وشردت نحو البُحيرة الكبيرة، أفكر في أمري، في ذاك السر الذي يُمزقني كلما رأيت أدهم، وملأت الدموع عيني وجففتها قبل أن يراني هكذا.. اقترب وسأل: أنتِ كويسة يا ليلى؟

قلت ولازالت الدموع تسكن عيني: لا.. مش كويسة يا أدهم.. عارف ليه؟ عشان مُستحيل أكون مراتك.. لأني مرات حد تاني.. يا رب تكون فهمت دلوقتي سبب هروبي منك دايمًا!!

قتل كلامي أدهم وشرد هو الآخر بعيدًا ثم قال: وأنا كمان متجوز!!

التزمنا الصمت طوال طريق العودة من الفيوم فلكل منا مصدوم بطريقته، لا شيء نفعله غير أننا نستمع لصوت «**كاظم الساهر**» وهو يُغني لِـ ليلته ويقول:

- «**ماتت بمحراب عينيكِ ابتهالاتي واستسلمت لرياح اليأس راياتي، جفت على بابك الموصد أزمنتي.. ليلى.. وما أثمرت شيئًا نداءاتي**».

وحتى أن وصلنا، وصرنا بزحام القاهرة بدلًا من هدوء الفيوم. كم كانت جميلة تلك الرحلة القصيرة والأجمل منها كذبته التي تمنيتها واقعًا.

يا ليته كان بالفعل زوجي، أنه الرجل الوحيد الذي أخذني من وحدتي نحو عالم أجمل، وملأ الفراغ الذي كان بحياتي، جعلني أشعر أن لدي مشاعر كأي امرأة وكنت قد افتقدتها طوال الخمس سنوات الماضية، ورأيت خلالها الأيام بواقع الملل والروتين، أحببت صمتي معه وحديثي، بل أحببت نفسي، لكنه أراد أن يعرف السر الذي كان سببًا لتلك الحواجز التي وضعتها بيننا، وبعد أن عرف.. لا أدري ما تصرفه القادم معي؟

عُدت إلى بيتي بعد غياب عنه فترة طويلة كما اعتدت، فالوقت الذي أمضيه في بيت أبي أكثر بكثيرٍ من الوقتِ الذي أمضيه في بيتي، ووجدت عامر

عاد من سفره وينتظرني، وقابلته ببرود شديد أكثر من كل مرة ألتقي به بعد غيابٍ، وقال بسخريةٍ:

ـ مبروك الشغل الجديد.. معلش جات متأخرة ما أنا آخر من يعلم بأخبار مراته..

قلت ببرود: الله يبارك فيك يا عامر.

قال بضيق: كان المفروض تعرّفيني يا ليلى بشغلك الجديد يا مراتي.

«**مراتي**» هذه الكلمة التي تُصيبني بالاختناق كلما نطقها، وكأنني من مُمتلكاته، على عكس ما شعرت به عندما نطقها أدهم، تركته وذهبت لغرفة «**فريدة**» التي كانت نائمة، أخذتها بين ذراعي، قبّلتها وضممتها نحوي لكنها غارقة بالنوم، بدّلت ملابسي ونمت بجانب ابنتي.

ناداني عامر: تعالي يا ليلى.. حُطيلنا أكل عشان جعان.

تركت حُضن ابنتي وأحضرت له ما طلب، وجلست أمامه على المنضدة، نأكل في صمتٍ، لا حديث يجمع بيننا، وبعدها شرب كوبًا من الماء ليعلن عن انتهاءه من الطعام، وفتح كلاماً ليس له أي أهمية لدي؛ كي يُبرر انشغاله عني كالعادة، وقال بنبرة مُتعبة: الشهرين اللي فاتوا كانوا صعبين جدًا يا ليلى.. شغل المصنع حاجة مش سهله.

قلت ببرودٍ: هتسافر أمتى تاني يا عامر؟

قال مهمومًا: يومين كدا وأسافر يا ليلى.. ما أنتِ عارفه مشاكل المصنع والعُمال لازم وجودي..

ـ طيب يا عامر.. المرة دي خلي معايا «**فريدة**» البنت وحشتني.

ـ أمي هناك مش بتقدر تستغنى عنها، دي حتى ماكانتش عايزاني أجيبها معايا المرة دي.

ـ أنا مامتها يا عامر.. مش والدتك هي اللي مامتها.

ـ حاضر يا ليلى.. فريدة هتقعد معاكِ المرة دي.

لم تكن «**فريدة**» طفلتنا الوحيدة فقط، بل كانت ذاك الرابط الذي يجمعني بعامر ويكبلني به، كلما أفلتّ منه.. كتفني وشلّ حركتي أكثر، فهي الشيء الوحيد الذي يجعلني أن أحتمل حياتي بهذه الطريقة، ويجعل أمر الانفصال صعب.

مرّ اليومان وكانوا من أطول الأيام التي مرَّت عليّ، أخذ بهم عامر مني ما قد دفعه للعودة إلى البيت، ذاك السبب الوحيد الذي يُذّكره بوجودي وأهميتي لديه.. كم أحتقر نفسي في تلك الأوقات!!

عُدت إلى بيت أبي ومعي فريدة، ارتمت البنت في حُضن جدتها، فكانت حفيدتها الوحيدة، لأن أخي الوحيد «**موسى**» لم يتزوج حتى الآن، ويعيش بالعريش فهو الشريك الوحيد لعامر بمصنعه، ذاك المصنع الذي كان أطلالا من خمس أعوام، لكن بجهد أخي وعامر.. عاد المصنع إلى هيئته وأصبح من أهم مصانع البلاستيك.

بدأت صداقة عامر وموسى من أيام الجامعة، فكان عامر دائم الزيارة لبيتنا، حتى أن اعتبرته أمي ولدها الثاني، ولم يتوقف عامر عند حد صداقته بأخي، بل أراد الدخول والانتماء لعائلتنا أكثر، وتقدم للزواج بي بعدما لمحني في حفل تخرج موسى، ووقتها لم أشعر بالارتياح أبدًا له، لكنه «**عريس**» لا يمكن وأن يُرفض بمقاييس الأهل والمادة، فيكفي أن لديه شقة ويقدر على تحمل مصاريف الزواج في زمننا هذا، وافقت وأقنعت نفسي أن السعادة ستأتي مع الأيام وستتولد مشاعري مع الوقت، وتعجلت الارتباط حتى لو لم يكن هناك حُب، فكنت كأي فتاة تحلم بأن تضع دبلة في إصبعها وترتدي الفُستان الأبيض.

لم يكن أبي بالبيت لا بدّ أنه خرج للصلاة في الجامع، فدخلت غُرفتي والبرد بدأ ينهش في جسدي، على الرغم أن توقيته لم يأت، فمازال التوقيت خريفًا، لكن إحساسي بالبرد يشتد أكثر، وكان جسدي ينتفض، ارتديت ملابس ثقيلة على ملابسي وجلست على الفراش أرتعش، وكأن برأسي كهرباء تجعلني أرتعش بهذه الطريقة، ناديت بأعلى صوت:

ـ ألحقيني يا أمي.. برداااانة.

جرت أمي نحوي ووجدت جسدي كله ينتفض، وأحضرت من الدولاب غطاءًا ثقيلًا، ولكنه لم يتمكن من تخفيف ما أشعر به، فصنعت لي كوبًا من الليمون الساخن، وطلبت مني أن أشربه قبل أن يبرد وحينها بدأ جسدي وأن أهدأ وسألتها عن فريدة.. وقالت:

ـ بتلعب جوه في أوضتي يا ليلى.. نامي أنتِ دلوقتي يا بنتي.

ثُم سألتها عن أبي..

ـ ليه أتأخر كل دا بره في الصلاة...

فلم تُجبني وكأنها لم تسمعني وأغلقت النور بعد أن اطمأنت عليّ وخرجت، فأمسكت هاتفي واتصلت بأدهم، كلمته بصوتٍ مُرتعش، فلازال البرد يسكنني:

ـ أزيك يا أدهم..

ـ محتاج لك يا ليلى..

وتحدثت بنبرة طفولية عن نفسي كعادتي القديمة وكأنني شخص آخر:

ـ ليلى محتاجة لك أكتر يا أدهم..

ـ لازم تيجي بُكرة الشغل.. يومين بحالهم ما شوفكيش فيهم!!

ـ كانوا أطول يومين في حياتي يا أدهم.

ـ وحشتيني يا ليلى..

ـ هشوفك بُكرة في المؤسسة يا أدهم.

وفجأة انقطع الاتصال، ويبدو السبب من عنده، وبعد تلك المكالمة القصيرة، صار عقلي يُردد كل حرف كان بيننا، فلقد نجح أدهم في انتزاع البرد من داخلي، فكان صوته دافئًا.. انتقل دفئه لكل جسدي.

عادت صغيرتي ليلى التي تُرافقني كلما كبرت تحكي لي ذكرى أخرى من ذكريات طفولتها عندما كانت نائمة في ليلة ما بين ذراع أمها، تشتم بها رائحة الحنان والطمأنينة، أتى الرجل على غفلة، وشدّ ذراع الأم من تحت رأسها بقسوة

وكأن به قوة ألف رجل، وأمسك بها حتى الغُرفة المُظلمة، كانت تسير خلفه كقطيع من الماشية وكأنه الراعي، وصك خلفهما الباب بالمُفتاح كي يتأكد أن لا أحد سيتمكن من الدخول إليهما، أغمضت الصغيرة عينيها خوفًا وافتعلت النوم، بينما أذنها تعمل وتراقب الغرفة البعيدة في صمت.

دموعها بجانبها على الوسادة، تخاف على أمها، تسمع صوتًا من التأوهات.. يخطر ببالها انه يضربها، مرت الدقائق عليها وكأنها ساعات طوال، فُتح الباب وخرج الرجل، بينما أمها ظلت بالداخل، ذهبت إليها تبكي، ووجدتها على حال غير حالها، ثيابها مفتوح وشعرها غير منظم، لا بدّ أن بها أذى، لكن هذا المشهد لم يكن الوحيد بل تكرر كثيرًا أمامها في طفولتها، وظللت الصغيرة تُراقب في صمتٍ، لا شيء يمنعها من اللحاق بأمها ونجدتها غير أن هذا الرجل.. كان أبيها!!

عُدت لحاضري على صوت أمي المُرتفع بالخارج وهي تتحدث مع موسى عبر هاتفها المحمول، قمت وفتحت الدولاب كي أختار منه أجمل الملابس فاليوم عودتي إلى العمل بالمؤسسة بعد غياب يومين غير محسوبين من عمري مع عامر.. وهناك سأرى أدهم!

انخفضت نبرة صوت أمي فجأة، لا بدّ أنها تحكي لأخي أمرًا لا تريدني أن اسمعه، لكن ليس هُناك ما تخفيه أمي عليّ، فدفعني الفضول أن أضع أذني على باب غرفتي حتى أسمع.. وسمعتها:

ـ أختك إمبارح جالها التعب تاني يا موسى.. تعب قلبها يا ابني أنت نسيت.. أيوه بردت جدا والدكتور حذرنا من اي ضغط على قلبها ومعنى

كدا أن الدم مش بيوصل للأطراف وبيسبب لها برد شديد.. طول الليل عيني ما شافت النوم يا بني.. أدخل أبص عليها وأرجع تاني.. لا لسه نايمة لحد دلوقتي.. أسيبك أنا عشان أصحيها نروح شُغلها.. أبقى اتصل تاني ومتنساش أمك.. مع السلامة يا ابني!!

كنت أسمع ردود أمي على أخي وأخمن كلامه على الوجه الأخر، وجلست على السرير أفكر وأتساءل: «**إلى متى ستظل أمي تُخفي عليّ سر مرضي الذي كنت أعلمه؟**».

ودخلت أمي غُرفتي وقالت: صباح الخير يا ليلى.. موسى بيسلم عليكِ وقال انه نازل إجازة قريب عشان يدور على بنت الحلال ويفرحنا بيه.. نفسي أشيل ولاده قبل ما أموت!

قمت وقبلت يديها وجبينها: ما تقوليش كدا يا أمي.. هتشوفي ولاد ولاده وربنا يرزقك الصحة وطولة العُمر يا ست الكل..

سمعنا صوت فريدة تُنادي «**ماما.. تيتا**» ضحكنا فكان في صوتها بهجة الحياة كُلها، جهزّت الإفطار مع أمي، بينما فريدة تمارس هوايتها المُفضلة في فتح وغلق أبواب دولاب المطبخ، ولأنني تأخرت فلم أفطر معهما.

كل الليالي عادية، إلا تلك الليلة التي ستنقضي بصباح نرى به أحبابنا، وصباحي القادم بنكهة ليلى، نائم العين بقلبٍ ساهر، أحلم بها وأفكر في موضوع حديثنا القادم، حتى أعلنت الشمس عن شروق جديد، ذهبت لمكان العمل قبل الجميع، أنتظرها وعيني على ساعتها التي تلازم يدي دومًا.. لقد تأخرت أو لأنني أتيت قبل الموعد الرسمي للعمل، فمازال هناك نصف ساعة حتى يبدأ، ولكي أجعل الوقت يمضي.. جلست على مكتبها الصغير، أتأمل أشيائها.. من أوراق وأقلام وتصميمات بخطها، ورأيت صورتها مع رجل غريب وطفلة صغيرة..

دخلت نور المكتب، فوضعت هذه الصورة سريعًا في محفظتي، وقالت بتفاؤل لبداية يوم جديد: صباح الخير!!

وأجبتها بمثلما قالت، وصار الزملاء يدخلون واحد وراء الآخر، حتى أتت من أنتظرها، وطار قلبي إليها لكنني تصنعت التماسك، وسلمت عليها ببرود على عكس ما أخفيه تمامًا، فأنا ماهر جدًا في إظهار عكس ما أبطن.

قبل الانهماك في العمل.. دعتنا زميلتنا «**سارة**» للإفطار، فلقد أحضرت معها لنا جميعًا.. «**فطير فلاحي وعسل وجبن**»، وقفنا حول المنضدة الطويلة وكانت ليلى تقف أمامي، تأكل وتتحدث مع زميلنا «**محمود**» الذي كان بجانبها وتضحك ورأيتها تتصور معه «**سيلفي**»، يبدو أنني لم أخطر على بالها ولم تراني أمامها من الأساس، وفعلت مثلها.. تحدثت مع «ساره» ونور وضحكت، حتى سمع الجميع ضحكاتنا وشاركونا الحديث والحوار.. وحينها استأذنت ليلى: عن

أذنكم يا جماعة هروح مكتبي عندي تصميمات كتير لازم تخلص النهارده.

المكان الذي يخلو من ليلى.. مجرد جماد لا حول له ولا قوة، حتى أنا أصير هكذا، فوجودها يُسكن في كل الأشياء روح وحركة وحياة وإن كانت جامدة، أنهيت الأكل مثلها والباقي تسلل واحدا تلو الأخر إلى مكتبه حيث وقت العمل والجد.

انتهزت فُرصة انشغال الجميع بعمله على مكتبه وقلت بهمسٍ لمن تجاورني:

- «**وحشتيني**».

لم ترد عليّ ولم تلتفت من الأساس وقالت: «**شُكرًا يا فندم**»..

غريبة ليلى.. وردها أكثر غرابة، وقلت مُعترضًا: مش هو دا الرد على فكرة..

قالت وكأنها تغيير: خلي «ساره» ونور يقولولك أيه الرد المُناسب..

قلت: وأنا مش محتاج الرد غير من واحدة بس..

كانت نور تتابع كل موظف على مكتبه وتسأله على حال العمل معه اليوم وما تم إنجازه هذه الساعة.. وعندما اقتربت مني اعتدلت في جلستي وقلت ببهجة:

- كل حاجة ماشية زي الفل يا سيادة المُديرة.

كنت أقصد هذا الرد.. كي أستفز مشاعر ليلى الساكنة، لقد علمت من ردها السابق عليّ إنها تشعر بالغيرة من مجرد حديثي مع غيرها، كنت أحتاج بالفعل لدليل يبرهن على حبها، وأخيرًا وجدته.. الغيرة دليل الحب إن صدق!!

ضحكت خلسة وقررت أن أستمر في تزويد النار بالحطب، فكم يبدو جميلًا شكلها عندما تُغضبها الغيرة!

مرت «ساره» أمامي.. قلت بدعابةٍ: تسلم أيدك يا سارة، الفطير كان تُحفة!

ضحكت سارة وقالت: دا جاهز يا أدهم.. أنت عارفني خيبانه في الحاجات دي.

قلت مُعاكسًا: تسلم أيدك اللي كلفت وجابت..

شكرتني سارة وذهبت إلى مكتبها وكلها سعادة، بينما الغضب ملأ رأس ليلى وقالت بانفعال واضح: استأذنك يا نور.. هجيب حاجة وأرجع!

كانت سارة بأواخر الثلاثين، ولم ترتبط بأي رجل حتى هذا الوقت، ومن المفترض ان تتنازل الفتاة عن ما تطمح به في شريك حياتها، لكنها لن تتنازل أبدًا عن أي شرط من شروطها فعلى حد قولها «**مش بعد ما استنيت كل دا.. آخد أي حد والسلام حتى لو كان التمن أعيش من غير راجل**».

تركت ليلى المكان كله لكنني لحقت بها بعدما أخبرت نور أنني سأدخن سيجارة بالخارج، وجدتها تسير في شارع جانبي وناديت: استني يا ليلى..

لم ترد وأسرعت في سيرها لكنني وقفت أمامها وكأنني اعترضت طريقها..

قالت بضيق: نعم حضرتك!!

قلت بصوت مسموع: «**بحبك**».

سكتت.. قلت بصوت أعلى: «**بحـــبك**».

سكتت.. قلت بصوت يكاد يلفت انتباه المارة: «**بـــحِـــبـــك**».

هدأت قليلًا بل وتلوّن وجهها خجلًا، وجلسنا على كافيتريا مُجاورة، طلبت لها كوبًا من القهوة السادة كما أرادت وطلبت لنفسي كوبا من الشاي، قالت بعصبية: عجبك فطير سارة!!

قلت بضحكٍ: عجبتني سارة نفسها..

وقفت فجأة وقالت: أنا ماشية يا أدهم وهجيبلك سارة تيجي تُقعد معاك.

ضحكت أكثر ومسكت يدها كي تجلس ثانية وقلت: أنتِ مجنونة يا ليلى.

ردت: أنا لما بغيير.. ببقى فعلًا مجنونة.

قلت كي استدرجها: وليه بتغييري؟

وقف الكلام على شفاها ولم يخرج، وصار وجهها أحمرًا وكررت سؤالي:

ـ ليه بتغيري يا ليلى؟ انطقي.. عشان بتحبيني؟ سمعيني.. ليه؟

قالت مُختصرة: أيوه عشان كدا..

قلت مُترجيًا: عايز أسمعها منك يا ليلى.. أرجوكِ.

حاولت الإجابة: عشان.. عشان.. عشان باا باحـ.

ـ هااا.. كملي!

ـ عشان بااحـِ.. بحبك، بـحبك يا حبيـب!

أخذت تنهيدة من الأعماق، وكاد قلبي أن يقفز خارج ضلوعي، كلمة كهذه منها.. لها مفعول سحر غريب يُسكن كل الأوجاع ويُبدل حال الدنيا إلى جنة

حقيقية، فجميل أن تجد من تُحبه بصدقٍ دون مصلحة أو مقابل.. والأجمل أن يُبادلك الحب نفسه، حدثتني عن نفسي وحدثتها عن نفسها، وما يعلمه كلا منا عن الآخر أو اعتقده فيه، وقلت مُتبادلًا معها جمال لحظة الاعتراف:

ـ بحبك يا حبيبة!

فعلت هذه الكلمة بنا ما لا تفعله أي كلمة أخرى بكل قواميس العربية، ففي سماعها أو النطق بها رعشة غريبة للجسد كله، وخفقة قلب زائدة، وسألت نفسي: كيف كنت أعيش طوال حياتي السابقة دون هذه الكلمة؟ وما السر وراء الحروف الأربعة «**ب ح ب ك**» لتجعلنا هكذا؟ ولماذا نشعر بها فقط لأشخاص مُعينين دونًا عن باقي البشر؟ كلمة كهذه تُنطق وتُسمع وتُحس لشخص واحد فقط.. وكانت للحبيبة!

كان لا بدّ عليّ أن أنهي الحديث لكن المشاعر لم ولن تنتهي أبدًا، فالوقت يمر والساعة صارت ساعتين وهناك عمل بالمؤسسة ينتظرنا.

وصلنا لمدخل المؤسسة.. طلبت منها أن أسبقها وتأتي بعدي بدقائق حتى لا يسيء أحدهم الظن بشيء ما نحن في غنى عنه.

دخلت المؤسسة ولحقت بي ليلى بعدها بدقائق، ولم تنتبه نور لتأخيرنا لأنها كانت مُنهمكة بوضع خطة توزيع زيارات المدارس للفترة القادمة.

وكانت من بين الخطة يوم في الأسبوع القادم مُخصص لمتابعةٍ لي مع ليلى لنفس المدرسة التي ذهبنا إليها قبل ذلك، سأنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر!!

كأنني ولدت على يديه من جديد، عرفت أن الوجه الآخر للحب هو الاهتمام، فصباحي يبدأ به وإليه ينتهي يومي، كنت أعتقد لسنوات ليست بقليلة إن الاهتمام هو أن يرعاك أحدهم بالمال ويتكفلك بالطعام والشراب، لكن أدهم علمني أن الاهتمام هو أن يتفرغ الحبيب للسؤال عن حبيبه في أكثر الأوقات انشغالًا وليس السؤال عن حبيبه عندما يتفرغ للسؤال، وأجمل ما في الاهتمام.. أن يكون مُتبادلاً!!

لكن القدر لا يمنحنا كل شيء كما نُريده، وإن منحنا شيئاً.. يأخذ أشياء أخرى في المقابل، ومن شروط السعادة أنها لا تدوم، وفي ليلة نمت مُبكرًا، واستيقظت قبل الفجر بدقائق لشيء ما سرق النوم من عيني، نظرت لهاتفي ربما يكون هناك اتصال أو رسالة من أدهم لكنني وجدت شيئاً آخر لم يخطر على البال.

وجدت رسالة من امرأة لا أعلم عنها شيئًا وكان محتواها:

ـ أنا واحدة ما تعرفنيش.. حبيت أقولك حاجة مُهمة.. أدهم متجوز ومعاه ولد صُغير.. وأنا مراته وبحبه، ابعدي عننا وما تخربيش بيتنا.. أرجوكِ يا ليلى!!

مزقتني الرسالة وجعلتني أشعر بأنني امرأة سيئة تسعى لسرقة رجل من زوجته ولو كنت مكان هذه السيدة وأحب زوجي مثلها لكنت فعلت أكثر من ذلك وليس مجرد رسالة صغيرة منها، لكنها لا بدّ وأنها حكيمة وغير مُتسرعة الفعل والانفعال، ومن حقها أن تدافع لأنها صاحبة الحق ومن حقي أن أتنازل لأنني ليس لي أي حق.

قمت بالرد على الرسالة وأنا مصدومة وكتبت:

ـ أنا آسفة.. ربنا يسعدكم ويفرحكم بـ ابنكم!!

جلست أفكر حتى الصباح في الأمر وعقلي كاد أن يُجن، كنت في مشكلة حقيقية بين قلب وعقل، قلب يُحب وعقل يرفض، قلب يقترب وعقل يبتعد، قلب يأبى الرحيل، وعقل يُصر على القُرب، صراع حياتي.. بين ما أحتاج لوجوده بجانبي ولا أجده.. وبين ما يوجد جانبي بالفعل ولا أحتاجه، لكن لا بدّ من اتخاذ القرار الآن، فالواقع كله ضدي، والمجتمع لن يغفر لي ذنبي الذي لم أذنبه بعد وإن كنت ضحية..

أعلم أن نهايتي مع أدهم حتمًا قادمة، فالبداية كانت خطأ من الأساس.. لذلك سأستخدم كُل قواي؛ كي أبتعد بنفسي قبل أن تجبرني الظروف على هذا، سأحاول.. حتى لا أكون سببًا في انهيار أسرة من ناحية، وحتى لا أكون بالزوجة الخائنة من ناحية أخرى.. فأهلي قد أحسنوا تربيتي ولن أخذلهم أبدًا، وهذه العلاقة لا بدّ وأن تنتهي.. فما بدأ في الظلام سيستمر هكذا بلا نور، وامرأة مثلي ليس مكانها الظلام.. سأبتعد بلا عودة!!

في العمل.. أهرب من أدهم ولا أعطي له فرصة للحديث معي، أفتعل الانشغال بأي شيء، أتأخر في الصباح وفي نهاية اليوم أستأذن قبل الجميع، وكان يتصل بي في الساعة الواحدة عشرات المرات، اتصالاته تُمزقني.. أريد أن أرد عليه.. ولا أستطيع، أريد أن أشرح له أنني أفعل هذا لصالحه قبل أن يكون من أجلي.. ولا أستطيع، أريد أن أخبره تفاصيل رسالة زوجته.. ولا أستطيع، وكل ما أستطيع فعله.. أن أنظر إلى اتصالاته وابكي في صمت.

حاول أدهم بكل الطرق أن يُكلمني ولم يتمكن من ذلك لا في العمل ولا من خلال الهاتف، حتى وجدت رسالة منه على هاتفي.. يقول بها:

ـ أرجوكِ ردي عليّا.. حتى لو كانت دي آخر مرة!!

وبعد هذه الرسالة وجدته يتصل.. وقمت بالرد عليه وكان ردي هو السكوت، وقال مُتأثرًا: حرام عليكِ يا ليلى اللي بتعمليه فيا.. كفاية اللي أنا فيه.. بلاش تبقي قاسية عليا أنت والزمن.. أنا ماصدقت لقيتك.. أنا عمري ما كنت ضعيف بالشكل دا.. أنا عمري ما حبيت حد زي ما حبيتك.. ردي عليا يا ليلى!!

قلت بأسفٍ: ما ينفعش نكمل أنا وأنت مع بعض..

وبدأت الدموع تنهمر من أدهم وكاد صوته أن يختفي وراء دموعه وقال: كل اللي تطلبيه مني يا ليلى هعمله.. حتى لو قلتيلي إننا مش هنتكلم تاني، ولو قلتيلي ابعد عني.. هبعد بس بشرط يا ليلى!!

قلت بقلب يعتصر: شرط إيه يا أدهم؟

حينها اختفى صوته تماما بسبب بكائه الشديد، وكل ما ظهر من صوته أنفاس مُتقطعة: تقوليلي إيه اللي غيرك معايا كدا مرة واحدة؟

وكان من المستحيل أن أخبره شيئًا عن رسالة زوجته لأكثر من سببٍ، ثم تراجع وقال: خلاص مش لازم أعرف السبب اللي خلاكِ تتغيري كدا لكن هطلب منك حاجة تانية.. ماتنسيش أدهم، عشان أدهم عمره ما هينسى ليلى!

استمر في بكائه وكانت هذه أول مرة أسمعه يتألم بكل هذا الصدق، فأدهم كان صادقا في حبه كما كان صادقا في دموعه، وكيف لي أن أقسو على رجل مثله يبكي من اجل امرأة؟ وبادلته البُكاء وحينها عدلت عن قرار البُعد وقلت: وأنا مش هبعد عنك أبدًا يا أدهم!!

بدأ وان يهدأ ويقول: يعني مش هتسيبني يا ليلى؟

قلت: عمري ما هسيبك يا أدهم.

لم أحتمل بكاء أدهم.. دموعه حوّلت كل القوى التي بي حينما اتخذت قرار البُعد إلى ضعف كبير وتراجعت عن التنفيذ بالفعل، فالأصعب من قرارِ البُعد هو البُعد نفسه.

سأكمل قصتي مع أدهم مهما كانت العواقب، سنمر بالحب بجميع مراحله، سنتذوق من كؤوس السعادة وان كانت مؤقتة، سنواجه العالم ما دُمنا معًا، سنُسخر الواقع لأجلنا، سنحارب المُجتمع فهو السبب الكبير في تعاستنا من البداية، لا ظروف ستحكمنا ولا منطق، بالحب فقط سنحيا وبالجنون أيضًا، ففي الجنون كل الحياة، ومن عاش بعقلٍ كأنه ميت، فأنا لأدهمي.. وهو «**لي حبيب**».

لو تمنيت وحلمت بمواقف ولقاءات تجمعني مع ليلتي.. لما حدثت، لأني دائمًا كل ما أتمناه يرحل، لكن القدر يمنحني معها أكثر مما أتمنى وأكثر مما لا أجرؤ على أن أحلم به، القدر صديق لي ولها، جمعنا ويجمعنا وسيجمعنا، أيها القدر الشقي.. لا تجعلنا نفترق أبدًا!!

أريد أن أهرب معها هذا الصباح إلى اللانهاية واللاعودة، سنفعل سويًا كل ما في طاقاتنا اليوم لإحياء ذكراه في قلوبنا للأبد، سنتسابق مع الرياح، ونلمس الفرح والأمل بأيدينا، سنصنع المعجزات مرة واحدة.. فأني أسميتها الحبيبة واختارت «**لي**» اسم «**الحبيب**»..

هذه المرة الثانية التي سنذهب بها معًا للفيوم وكانت لمتابعة نفس المدرسة التي ذهبنا إليها قبل ذلك بإحدى القُرى هناك، لكن تلك المرة تتبع عربتنا عربة نقل كبيرة بها كل احتياجات المدرسة والأجهزة التي تنقصها.

رحب بنا المدير الطيب الأستاذ «**يونس**» كعادته وشكر لنا عطاءنا وقلت: «**الشكر لله**» وأصر على دعوتنا للغداء مرة ثانية وحضور زفاف ابنته تلك الليلة، نظرت «**لها**»» ونظرت «**لي**» وأجابت عيوننا بالموافقةِ.

طلبت من سائق عربة النقل أن يعود للقاهرة وسنعود وراءه عندما نُأخذ توقيع المدير على الاستلام ويقر انه سيُفعّل كل هذه الأدوات بالمشاركة مع مدرسين ومدرسات المدرسة لصالح الطالب.

ذهبنا مع الأستاذ «**يونس**» بيته بعد انتهاء اليوم الدراسي، ورحبت بنا زوجته وبناته وكل الأهل فكما كانوا يعلمون أن ليلى زوجتي وليست مجرد زميلة عمل، أعطى لنا غرفة كبيرة للراحة بها لحين تجهيز الغداء.

دخلت مع ليلى الغرفة، وكانت المرة الأولى التي يُقفل علينا بابا واحدا، شعرت حينها أنها زوجتي بالفعل، اقتربت نحوها فابتعدت، اقتربت ثانية وقلت بلطفٍ:

ـ ما تخافيش مني يا ليلى.. أنا أخاف عليكِ أكتر منك وبحبك ومش منتظر منك أي حاجة..!!

لكنها لم تثق في قولي فكل ما بي يخبرها عكس ذلك، ولكي تقطع حدوث ما نخشاه ولا تجعل الشيطان يتحالف مع مشاعرنا ويسيطر وينتصر.. خرجت ليلى من الغرفة تُشارك من بالخارج في أي شيء يفعلونه من تجهيز الطعام أو من تصفيق وغناء ورقص وكأنها أرادت الهرب وكنت أتطلع إليها من وراء الباب، فلا أريد أن تمر لحظة وهي بعيدة عن عيني.

طرق الباب طفلا صغيرا يستعجلني لتناول الغداء بالخارج، وكان الغداء جماعي لكل الأهل، فالرجال معا والنساء معا، ولمحتها تجلس أمامي على مرمى البصر، نتبادل النظرات سرا، سألني أحدهم..

ـ معاك أولاد يا أستاذ ادهم؟

ـ ربنا لسه مكرمناش.

شرب قليل من الماء كي يفتعل انشغاله وكأنه اعتقد أنني قد غضبت من سؤاله أو أحرجني به، فقلت برضا وكأنني عشت الحالة والدور: ليلى مش مراتي بس.. دي كمان بنتي وهي عندي بالدنيا كلها!!

وكانت زوجة الأستاذ «**يونس**» تناولنا إمدادا آخر من الطعام وليلى تساعدها، الكم كبير والبطون تحتاج إلى المزيد.. ونظرت السيدة لزوجها، ثم إلى ليلى وقالت حينها: سامع الكلام الحلو يا حاج.. سامعة يا ليلى؟

ردت ليلى: وأدهم كمان ابني وكل حاجة حلوة في حياتي.

ردد بعض المنتبهين لحديثنا: ربنا يسعدكم ويعوض عليكم بالخلف الصالح قريب إن شاء الله.

قلت أنا وليلى بصوت واحد: آمين.

دعا بهذا الرجل الطيب ولم يعلم أن الأمر صعب.. صعب للغاية ولو إنني لم امنع ذهني من الشرود بعيدًا حيث طفل من ليلى، ولاسيما تكون بنت، تجمع صفاتي وصفاتها، نضع بها كل حُبنا.

عُدت من شرودي عندما نادتني ليلى كي أشرب الشاي بالخارج مع الرجال وسط الخضرة والطبيعة الساحرة.

وبعد جلسة الشاي الصغيرة.. أعطاني الرجل الطيب جلبابًا مُهندما لحضور زفاف الليلة، أخذته ودخلت به غرفتي وكان بها حماما داخليا، سكبت على

جسدي الماء، وكنت أشعر كما لو أنني العريس الذي سيزف على عروسته بعد قليل، لبست الجلباب، وكان على مقاسي وكأنه خُيّط من أجلي، وجلست على مقعد صغير أنتظر ليلى، لكنها تأخرت بالخارج، اتصلت بها استعجل قدومها، لها أكثر من ساعتين بعيدة عن عيني والوقت قد تخطى الغروب بدقائق، حتى وجدتها تفتح الباب وتقف أمامي.

يجلس أمامي ينتظرني بلهفة لا نظير لها، نظرة واحدة من عينيه قادرة على البوح بكل كلام الحب الذي سبق وان قيل والذي لم يقال بعد، نظرة واحدة من عينيه قادرة على أن تجذبني نحوه ويحتويني بيها، الاحتواء قد لا يكون عناق كامل بين جسدين بل قد يحدث الاحتواء من نظرة، يتأملني من أعلاي لأسفلي ومن كل الاتجاهات، وكنت أرتدي فستانا له طابع ريفي بألوان مُبهجة أعطته لي أخت العروسة؛ كي أحضر به زفاف الليلة، وقال:

ـ أنتِ حلوة بزيادة يا ليلى..

قلت بخجلٍ: عشان أنت شايفني بعينك يا أدهم..

هُناك من الرجال من ينظر للمرأة نظرة دُنيوية بحتة، بل ودونية، ويحبها لشيء بها كشكل جسدها أو لون عينيها أو طريقة مشيتها وصوت ضحكتها وحديثها، لكن هُناك نوع آخر من الرجال يُحب المرأة فقط ليس لأي شيء تمتلكه، بل لأنها هي، فأحبني أدهم لكوني فقط أنا.

خرجنا من غُرفتنا ويدي في يده إلى الصوان الكبير وجلسنا بجانب بعضنا، نخطف الأنظار جميعها نحونا، وكأننا العروسين وسنُزف بعد قليل، كنا نحيا واقعًا جميلًا.. أجمل من ألف خيال، وعرفنا معًا معنى أن ليلة واحدة قد تُساوي كُل ليالي العُمر!!

قال كأنه يشاكسني: العروسة جميلة.

قلت بضحكٍ: والعريس كمان زي القمر.

ودخلت معه تحدي الغيرة، فهو الذي بدأ حربها والنفخ في نارها، ثُم جذبتني للمنتصف سيدة كبيرة في السن تبدو أنها جدتهم وربطت خصري بقماشةٍ سميكة وكأنها تأمرني بلطفٍ أن أرقص، ووضعتني في موقف محرج للغاية، لا أستطيع أن أعود أو أتراجع، وارتفع صوت التصفيق والغناء ورقصت وكلي سعادة وحياة، لم ألتفت وقتها لأدهم فقد اختفى وسط الزحام، وركزت في إظهار موهبتي المدفونة بالرقص، والعين تنظر والأيادي تُصفق والقلوب تفرح.

وعدت لمكاني بعد أن سلمت راية الرقص لفتاة أخرى، كانت السعادة تقفز من عيني كباقي أهل تلك القرية الصغيرة، بينما الغضب يقفز من عين أدهم، وأخذني بعيدًا عن الناس في مكان قريب من بُحيرة الفيوم، وسألته:

ـ عجبك رقصي يا حبيب؟

ـ مش مهم يعجبني أنا.. المهم يكون عجب الناس!!

وقلت كأنني أستفزه: أنت كمان رأيك يهمني.. أصلي أنا كنت مكسوفة جدا.

ـ واضح انك مبسوطة وأنا جوايا بُركان نار..

توقفت عن استفزازه وقلت ببعض من الجدية: أنت زعلت يا أدهم..؟

رد بعصبية: أنتِ محترمتيش حتى وجودي.. الناس كلها هنا عارفين انك مراتي وأنا جوزك يا ليلى..

سألته وكأنني لم أسمعه: أنت إيه يا حبيب؟

كرر قوله: أنا جوزك.. جوزك يا ليلى!

أصابت هذه الكلمة قلبي، وافتعلت كثيرًا عدم سماعها وطلبت منه أن يُكررها ثانيًا وثالثًا وعاشرًا، وفي كل مرة تهدأ ثورته، ويخترق قوله قلبي وتُسقطه أرضًا كما لو كانت حقيقية..

وكان يجب عليّ الآن أن أعتذر: ما تزعلش مني.. حقك عليا يا حبيب.

ابتسم أدهم بعد أن هدأ بركان غضبه وقال: أنا أول مرة في حياتي أعرف معاكِ حاجات كتير يا ليلى.. اعرف يعني إيه اهتمام.. يعني إيه لهفة وشوق وافتقاد؟ اعرف يعني إيه غيرة؟ أنا بتعلم من جديد على أيديك يا ليلى أزاي أعيش وأحب.. أنتِ بدلتي حالي تمامًا!!

قلت بصدقٍ: وكأنك بتتكلم عني يا حبيب وبتوصف حياتي من بعد ما دخلتها.

قال راجيًا: ما تبعديش عني أبدًا يا ليلى.

قلت بخوفٍ من الأيام القادمة: مش هبعد عنك يا حبيب.

سكنت القرية تمامًا، فلا صوت بها ولا حركة، إلا صوت واحد وهو صوت قلوبنا، أسمع نبضاتها وتسمع نبضاتي، وكأن لنبضاتنا معنى آخر ونحن معًا، فإني أحبها عن ظهر قلب!

كان باب البيت مفتوحًا، تركوه أصحابه لحين عودتنا. دخلنا غُرفتنا الكبيرة، وأغلقت بابها خلفنا بالمفتاح، ووجدنا عشائنا على الطاولة بجانب الفراش، تناولنا القليل منه، وجلست ليلى على مقعد صغير وأخبرتني أنها لن تنام تلك الليلة، وعلمت أنها لا تُريد النوم على الفراش كي تتركه لي، لكنني أخذت وسادة صغيرة ووضعتها على الأرض وقلت:

ـ أنا هنام هنا على الأرض يا ليلى وأنتِ تنامي على السرير.

رفضت في البداية لكنني أقنعتها وفردت جسدي على سجادة سميكة على الأرض ووجهي نحوها، أشاهدها وهي نائمة أمامي على الفراش، كم كانت بريئة في نومها كطفلة لا تعرف خُبث الكبار!!

وبعد قليل سمعتها تنادي بصوتٍ مُرتعش: أدهم.. أنا بردانه جدًا!!

قُمت وأطفأت «**المروحة**»، لكنها لازالت على حالتها بل وتزداد سوءً، فجذبت غطاءً صغيرًا وجدته أمامي وفردته على جسدها، ومع ذلك لم تهدأ أبدًا، وشعورها بالبرد يزداد على الرغم أننا لازلنا في الخريف، ولم يحن موعد البرد لهذه الدرجة، بل كانت تلك الليلة حارة، حاولت أن أهدأها بالحديث معها:

ـ الجو مش برد يا ليلى.. اهدي يا حبيبة.

لكن حالتها لم تتحسن بعد، وصارت شفتاها ترتجف وشحُب لون وجهها، وكفوف يدها تلونت بالأزرقِ، وكأن الدم قد هرب تماما من كل جسدها، قلقت عليها وتيقنت أنها حالة مرضية لا علاقة لها بطقس الليلة على الإطلاق، وفكرت أن أوقظ أهل البيت لكنها منعتني وقالت بصوت مُرتعش:

ـ خُدني في حضنك يا حبيب وأنا هبقى كويسه..

اقتربت، جلست جانبها على الفراش، ضممتها نحوي، ضممتها أكثر، سكنت داخلي، احتويت أجزائها، هدأت قليلًا، تنفست أنفاسها، منحتها دفئي، هدأت أكثر، زال إحساسها بالبرد وصرنا جسدًا واحدًا بنفس القلب، ومضت الليلة بسرعة رهيبة، وكان الشعور المُسيطر علينا حينها.. إنها ملكي وكنت ملكها، إنها لي وكنت لها، ومارسنا معًا طقوس العشق كما ينبغي أن تكون، ورحلنا عندما تنفس الصُبح عن المكان كله ومعنا ذكريات ليلة لا تُنسى.

التفكير يقتلني في كل وقت وأينما ذهبت، أشعر كأنني في متاهة ضيقة أو دائرة مُغلقة، أعلم أنني ارتكبت خطأ كبير في حق نفسي وحق الرجل الذي يُسمى زوجي، ارتكبت جريمة لا يغفرها المُجتمع وإن غفرها الدين، سيرت طريقًا غير صحيح، ارتديت ثوب الخائنة المُذنبة، خذلت أهلي في تربيتي، خذلت زوجي قي ثقته، خذلت ابنتي وكل البشر.. في سبيل قلبي الذي أمرني بالحب، فوجدتني أحب.. وضعفت إلى الحد الذي كرهت به ضعفي.

وأتى لي وجه أبي يسألني: كنت بايته فين امبارح؟

فأخبرته كذبًا إنني كنت في رحلة عمل قصيرة لكنه لم يقتنع وكاد أن يصفعني على وجهي لولا تدخل أمي في الحال وبعدها دخل غرفته ولم يخرج منها حتى الآن ولم نتقابل حتى بالصدفة أثناء تناول أي طعام أو في أي وقت على مدار اليوم.

عاد «**عامر**» من العريش في إجازته المُعتادة، وعدت قبله لبيتي حتى أكون في استقباله، عيني تهرب من عينه، لا أستطيع مواجهته، بداخلي صوتان.. الأول يعتذر عن ما حدث، والثاني يُعاتبه لما حدث.

ـ تعالي يا ليلى.. اتعشي معايا.

رفضت بحجة إنني سبقته، وكنت لم أذق الطعام من أكثر من يومين، وأخذت بعضي ودخلت غرفة طفلتنا ونمت على سريرها وكانت في تلك الليلة عند أمي.

تناول العشاء سريعًا وكانت هذه وجبته الأولى وأتى سريعًا لي حتى يلتهم وجبته الثانية، وكلما اقترب امتنعت، حاولت أن أمنحه ما يطلبه، لكنني غير قادرة بالفعل، وطلبت منه أن يتركني أنام لأنني تعبت بالعمل طوال النهار، غضب كثيرًا ووضع كل غضبه في سيجارته ولم ينم جانبي تلك الليلة ونام بمفرده في غرفة أخرى وكأنه يعاقبني ببعده ولم يعلم أنني قد اعتدت على هذا.

لم أنم تلك الليلة، أبكي في صمت، أبكي لعبة القدر، أبكي على واقع روتيني ممل نحياه مع أشخاص لم يلتفتوا نحونا يومًا، أعاتب عامر بصوت غير مسموع، وأعاتب مثله أي رجل لم يهتم بشأن زوجته، فالمرأة كائن يعشق التفاصيل الصغيرة، المرأة كائن يعشق بأذنه قبل قلبه، تعشق الكلمة الطيبة مع الفعل.. لا الفعل فقط ولا الكلمة فقط، المرأة كائن يعشق من يهتم به، ومن يشاركها حديثها وان كان تافهًا، ومن يشاركها جنانها، ومن يعاملها كطفلة ويدللها، وان أراد أي رجل في العالم أن يُسيطر على قلب المرأة فليمنحها اهتمامًا.

الرجل العاقل بطريقة زائدة عند الحد يجعل نمط الحياة باردًا، الرجل الذي لا يهتم بتفاصيل امرأته ويتركها وحدها طوال الوقت في عمله أو مع أصحابه، يجعلها تعتاد على بُعده يومًا بعد آخر ويقتل داخلها أي رغبة تجاهه، وعندما يعود إليها لا تتقبله كما كانت في البداية وكأنه صار غريبًا عنها، فالرجل هو المسئول الأول والأخير عن المساحة التي يخصصها لنفسه في حياة زوجته، إما أن يكون حاضرًا وان كان غائبًا أو غائبًا وان كان حاضرًا.

أتذكر اليوم الذي أبلغني به عامر انه سيفتتح مصنع مع موسى بالعريش، رفضت هذا وكنت أترجاه بدموع عيني بألا يسافر ويتركني، فكان غيابه عني بالأمر الصعب الذي لم أتخيله أبدًا، لكنه أصر على السفرِ، في الفترة الأولى من غيابه.. لم تمر ساعة إلا وكنت أطمئن عليه واتصل به كثيرًا، وكان حديثه معي قليل، وكأنني لم أكن من أولوياته من الأساس وعمله هو كل حياته.

وبعد فترة.. بدأت أن اعتاد على الوضع الجديد واشغل نفسي بدراساتي بالجامعة وبعملي بالمدرسة ورعايتي لابنتي وأمي، كنت دوما اشعر أن هناك شيء ينقصني في حياتي، وعلمت بعدها إن «**الاهتمام**» هو هذا الشيء!!

وبعد فترة أخرى.. أصبحت أتحدث مع عامر على أوقات مُتباعدة لدرجة إنني أصبحت أنسى أن أتصل به، فيتصل هو بي، أصبح غيابه عليّ أمر عادي وأقل من العادي، لدرجة إنني اندهشت لأمري، كيف كان حزني لسفر عامر وكيف أصبحت باردة لا فارق لديّ بين غيابه ووجوده؟

اعتدت على بُعده وتأقلمت على العيش في بيت أبي وإن ذهبت إلى شقتي كي أخذ منها بعض الملابس والمُتعلقات، أعود سريعًا ولا أطيق البيات أو الانتظار.

في أجازات عامر الأولى كنت دومًا انتظر عودته وأجهز له أطيب الأكلات وأجهز البيت وأرتدي له الملابس التي يُحب أن يراني بها، كنت أخلق أجواء من الحب بعد غياب وطول انتظار، أما الآن؛ تبدلت تمامًا وكل هذا يحدث عكسه إلى الدرجة التي أشعر بها بالضيق والاختناق عندما يخبرني بقرب قدومه،

وعندما يأتي.. انتظر الوقت يمضي كي يرحل، فالزمن لن يغير ملامحنا الخارجية فقط، بل يغيرنا أيضًا من الداخل، يُبدلنا تماما ونصير أشخاص آخرون غيرنا يحملون نفس أسماءنا.

حاولت أن أذهب للنوم بجانب عامر كي أنسى من أفكر به ولو دقائق، لكنني لم أستطع فعل هذا، وكأن شيء ما داخلي يرفض الذهاب إلى عامر، أرفض حقيقتي معه، شيء ما يجعلني أعشق تفاصيل الخيال الذي لا واقع له وكان خيالي مع أدهم، وأرفض الواقع الذي لم يكن أبدًا كالخيال وكان واقعي مع عامر، وسألت نفسي: ما نهاية حكايتي مع أدهم؟

وبعد تفكير كان عليّ أن أختار بين شيئين لا ثالث لهما: أن أستمر هكذا جسدي مع عامر وقلبي وروحي مع أدهم وربما جسدي أيضًا، وأخالف العُرف والتقاليد وأغضب ربي.. أو أنهي تلك العلاقة مع أدهم وأسير مع التيار ضد قلبي مُطيعة لحكم الظروف والمجتمع والبشر، واخترت الخيار الثاني.. فالحب الدائم أساسه نور لا ظلام ونجاحه بناء على اتفاق القلب مع العقل معًا.

سمعت المؤذن يناديني «**الصلاة خير من النوم**» توضأت وصليت ركعتي الفجر وفي سجودي بكيت بحرقة وندمت على ما فعلت، ودعوت الله أن يغفر لي ذنبي، ووعدته ألا أكرره ثانية، وأن يمنحني القوة كي أبتعد.. كي أنسى.. كي أعود إلى عقلي ورشدي.. كي يملأ قلبي بحبه وحب زوجي وابنتي ولا يترك مكان فارغ لغيرهما، كي يدبر أمري كله من عنده فإني لا أحسن التدبير، كي يعوضني خيرًا بدلًا من أدهم، وأن يُعوض أدهم خيرًا بدلًا مني.

مضى الوقت سريعًا من بعد الفجر لم أشعر به، قضيته كله في الدعاء والسجود وشعرت براحة نفسية كبيرة وكأن دموعي غسلتني من الداخل، فما أجمل الوقت الذي تقضيه وأنت في مَعيّة الله!

ذهبت للعمل وكان عامر لازال نائمًا، قابلت أدهم في المؤسسة بوجه بارد وتعاملت معه مثل أي زميل تجمعني معه علاقة عمل فقط، ونادتني نور لتناول الإفطار معهم:

ـ تعالي يا ليلى.. دوقي عمايل إيدين أميرة!

سألتها: مين أميرة؟

قال أدهم مُرتبكًا: مراتي!!

رفضت الإفطار معهم بحجة انشغالي في التصميمات التي أمامي، وكان من غير المقبول تمامًا أن أتناول طعام من يد زوجته وأنا التي أخطأت كثيرًا في حقها عندما فكر قلبي في زوجها، وكنت داخلي أحسدها على أدهم، وفي الوقت نفسه أشفق عليها، لأنها تعيش نفس معاناتي ولكن بطريقة أخرى.

اتصل بي عامر.. يستعجلني العودة إلى البيت، ذهبت إلى نور واستأذنها للانصراف وقلت: عامر بيستعجلني أرجع له البيت.

ضحكت نور وغمزتني وقالت: يا بختك بعامر يا ستي.. الله يسهلك!

فسأل أدهم حينها الذي كان يستمع لنا وقتها: مين عامر؟

نطقت الكلمة بصعوبة وقلت: جوزي!!

نظر أدهم لي وكأنه يعاتبني بنظراته فكيف تخرج هذه الكلمة لرجل غيره؟ وبادلته نفس نظرة العتاب هذه، فكيف ينطق بكلمة «**مراتي**» لامرأة غيري؟ لكنه هو الواقع، مهما هربنا منه.. ستظل أميرة زوجته وسيظل عامر زوجي، وأنا له مجرد «**حبيبة**» وأدهم «**لي**» مجرد «**حبيب**»..

أحضرت طعاما جاهزا من أحد المحال الكبيرة وذهبت به للبيت، فموعد الغداء اقترب ولم يُسعفني الوقت لعمل الغداء، وقبل أن أضعه على الطاولة ناداني إليه في غرفته، ذهبت ووجدته يريد أن يبدأ بي، فأخبرته أنني مُتعبه وجائعة، وهربت من بين يديه.

قلت بصوت مُرتفع: تعالى اتغدى يا عامر..

جلس أمامي ولم يُعجبه الوضع وقال ثائرًا: ما طبختيش ليه يا هانم؟

أجبت: أنا لسه راجعة من الشغل.. مش هلحق أعمل أكل.

ثار أكثر: شغلك أهم من جوزك طبعًا!!

ـ مفيش أي وجه مُقارنة يا عامر.. وأنت متعود تاكل عادي من المطاعم.

أدخلني مقارنة مع أمه: أكل المطاعم دا عرفته على أيديكِ لكن أمي عمرها ما خلتني آكُل من برا.

ثُم أوقع بالطبق الذي أمامه على الأرض، وأشار إلى شنطة ملابسه التي أحضرها معه: ولبسي هيفضل لحد أمتى مرمي كدا من غير غسيل؟

لم يعطني فرصة الرد وحمل شنطة ملابسه وفتح الباب وخرج حيث غياب آخر لشهور أخرى ورميَ كلمتين: أنا راجع العريش أكل عند أمي وأخليها تغسل لي هدومي بالمرة..

هذا هو عامر لو لم أعطه ما يطلبه مني كما حدث بالأمس، يختلق المشاكل من عدم ولو أعطيته ما طلب، لكان تناول الغداء عن طيب خاطر وربما مدح به وإن كان ليس من صُنع يدي من الأساس.

جلست على الأرض.. أُلملم بقايا الطبق المكسور وتساقطت دموعي بشدة، ولم أنتبه لنفسي في هذا الوقت فجُرحت يدي عندما كنت أفعل هذا، فتحت كفي ونظرت إليها ورأيت الدم يمسح كل ما كتبه عليها أدهم من قبل، حاولت أن أمسح قطرات الدم لكنه كان يتجدد، وشعرت بالهزلِ والهبوط الشديد، اتصلت بأمي كي أطلب نجدتها، فأني أخشى أن أتعب أكثر، لكن صوت دموعي كان أعلى من صوتي، ولم أعرف هل تمكنت أمي من سماعي وفهمي أم لم تفهم كلامي من الأساس؟ وأغلقت الهاتف وذهبت إلى فراشي، وأتتني نوبة برد شديدة، أخفيت جسدي تحت غطاء ثقيل وحاولت النوم.

عُدت بذاكرتي لأعوام كثيرة مضت عندما أخذتني أمي نحو الوحدة الصحية، وسلمتني للممرضة كأسيرة حرب للرجعية والتخلف والتقاليد البالية، ودخلت بي غرفة لها رائحة مميزة وكأنها رائحة الموت، تلك الرائحة التي لازالت بأنفي حتى الآن، طلبت مني المُمرضة أن أخلع بنطالي لكني رفضت، فقالت كأنها تستدرجني: نامي يا حبيبتي على السرير..

سمعت كلامها تلك المرة، وأمسكتني وأعطت لي حُقنة مُخدرة وطلبت مني أن أعد من واحد إلى عشرة، استجبت لها وبدأت بالعدِ كي أثبت أني ماهرة.

ـ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٨..

توقفت عن العد وشعرت بثقلٍ في لساني وحركتي قد تجمدت، فأغمضت عيني دون إرادتها وذهبت في نومٍ عميق لبعض الوقت، رأيت نفسي وكأنني في سباق مع «**حسين**» ابن عمي وسط خضرة ساحرة وطبيعة خلابة، أقطف الزهور وأسابق العصافير، ومرّ الوقت وذهب تأثير البنج، وفتحت عيني ووجدت نفسي على فراشي في البيت وسط أهلي وكلهم فرحين مُبتهجين، حاولت أن أفهم ما يحدث بي من هؤلاء البشر وما الذي اقتطعوه من جسدي، وكانت زوجة عمي تُمسك بقدمي كي تمنع حركتهما، وربطت أمي في يدي خيطًا به سبعة من العُقدِ، وأخبرتني جدتي أن أُلقيه في وجه القمر عندما يهل مطلع الشهر العربي، وكان صوت أبي في أذني يقرأ سورة يــس، وبقيت أراقب المشهد في صمتٍ.

عُدت لحاضري مع ليلى الكبيرة عندما سمعت باب الشقة يُفتح فظننت أنه عامر عاد، ولم يحتمل السفر ونحن متخاصمان، لكنها كانت أمي ومعها فريدة، جرت أمي نحو المطبخ وملأت كفها بالبُن عندما رأتني أنزف بيدي وسكبته مرة واحدة على الدم وغطت به الجرح وسألتني بقلقٍ:

ـ إيه اللي حصل يا ليلى؟ وفين عامر؟ أوعي يكون اتخانقتوا مع بعض تاني؟

طلبت منها أن تؤجل فقرة التحقيق معي لحين استعادة هدوء جسدي، وأخذت منها «**فريدة**» وعُدت بها للفراش كي استعين بحضنها لمقاومة إحساسي البرد، وأجبرتني أمي على تناول العلاج الذي لازالت تُخفي عني دواعي استخدامه، لكنني سألت أحد الأطباء قبل ذلك سرًا عن روشتة العلاج، وأخبرني أنه علاج خاص بمرضى القلب، وأخفت عني سرها وأخفيت عنها سري، ولم تخبرني بأني مريضة قلب، ولم أخبرها أني مريضة بأدهم.

أعطتني الدواء وقالت: الدوا دا هيريحك وبعد ما تصحي لينا كلام مع بعض يا ليلى.

كان في صوتها نبرة من التهديد وكأنها عرفت شيئًا من عيني عن سر قلبي الذي أخفيه عنها وعن كل العالم وقلت مُطيعة: حاضر يا أمي.

وسألتها قبل أن تخرج من غُرفتي وكأنني فقدت ذاكرتي جُزئيًا: فين بابا وليه مجاش معاكِ؟ هو لسه زعلان؟

لم ترد عليّ كعادتها عندما أسألها عن أبي وعلمت من تجاهلها سؤالي.. أنه لازال غاضبًا مني، لازالت تصرفاتي كلها لا تُعجبه، لكنني دائما أسعى لإرضائه.. وحتما سيأتي اليوم ويرضى عني، ويضمني إليه ويعوضني عن سنين طويلة احتجت إليه ولم أجده ولم أجد حضنه بها.

ربما كان مرض «**حمزة**» ابني سببا ظاهريًا كي ابتعد عن ليلى لبعض الوقت لكن السبب الحقيقي أنني فكرت في أن أعيد حساباتي مع نفسي وأقف أمام المرآة وأواجه الحقائق والواقع، فلقد بدأت أن اشعر بعواقب علاقتي مع ليلى، لو استمرت على هذا الوضع سأدمر أسرتين، أسرتها وأسرتي، وسأظلم ابنتها وزوجها وابني وزوجتي، فمن الأفضل الآن أن أعود إلى صوابي وأقطع كل ما في سبيله أن يوصلني بليلى وأنا من داخلي أنهار.. لأنني أحببتها حقًا، فكانت «**لي الحبيبة**» لكن في الوقت غير المناسب.

أتصنع القوى طوال النهار والعمل يساعدني على هذا، ويأتي عليّ الليل ويهدم كل ما أحاول بنائه، وتنهار قوتي، وأمسك الهاتف وأتصل بها ولم ترد، وأهرب من التفكير في كل شيء وأي شيء وبها بالنوم حتى يعود نهار آخر وتتجدد قوتي لساعات أخرى.

أردت أن يساندني أحد فيما أفكر به، يدلني على الطريق الصحيح، يمدني بالقوة ويعينني على البعد أكثر وأكثر، وكان صديقي «**محمد كامل**» أقرب الناس إليّ، أعطيت له الأمان وأخبرته عن سري وقصة قلبي مع ليلى دون الخوض في تفاصيل.

رأيت في عينيه شفقة على «**أميرة**» زوجتي لأنني قد خُنتها عندما سمحت لنفسي أن أتكلم مع ليلى ومنحت مشاعري لغيرها، وكان يجب عليّ أن أقتل أي حب غير مشروع وأمنع نفسي في الدخول لعلاقة محكوم عليها بالفشل ونهايتها معلومة من البداية.

قلت: أنا عارف انك هتلومني على اللي عملته، لكن كل حاجة حصلت ماكانتش في الحسبان ولا بإرادة حد مننا.. أحنا لقينا نفسنا بنحب بعض وبنكمل

بعض من غير أي ترتيب وبدون أي مُقدمات، وكأننا مصدقنا لقينا بعض.

رد الصديق بجملة واحدة بعد كلام كثير: فكر مع نفسك وخد قرار.

رجعت البيت وبداخلي ندم على البوح بسر قلبي للصديق، فلا أريد أن يرانا أحد بعينه كما لو كنا على غير خُلق وخارجين عن السياق، فمن يسمع قصتنا سيحكم من منظور «**ما ينفعش، وما يصحش، وعيب، وحرام**».. لا أحد على الأرض سيعقل الأمر!

لكنني مع إحساسي بالندم.. أشعر براحة، فمجرد الحديث مع صديق قريب يجعلك ترتاح وكأنك ألقيت حِمل ثقيل من كتفك، وصار هناك من يُفكر لأجلك وينصحك وكأنه مكانك.. وكان محمد هكذا!

تطلعت إلى ملامح حمزة بينما كان نائمًا مُستسلمًا لمرضه، وعلاج المضاد الحيوي قد جعله ضعيفًا وفقد وزنه كثيرًا، حالته تُمزقني من الداخل، وأميرة بجانبه تنام على فترات مُتقطعة، فغلاوة حمزة لدينا ليست كمثلها غلاوة، فلقد أتى بعد عذاب وزيارات لأطباء النساء بسبب عيب خُلقي برحم أميرة، لكن مع العلاج والدُعاء، حدثت المُعجزة وأتى حمزة للدنيا كي يجعل لحياتي مسارًا آخر ويرفع من شأن رُتبتي ومسئولياتي من زوج فقط إلى زوج وأب معًا، لذلك فأقل تعب أو مكروه يُصيبه.. يأتيني قبله، لكن دور البرد شديد هذه المرة، أدعو الله أن يُشفيه وأن ينزل ما به بي بدلًا عنه، كم أشعر الآن بالظلم تجاه هذا الولد وأمه ولم أكن يومًا ظالمًا..!

لازال ذاك الألم يخترقني.. الألم الناجم عن بُعدي أنا وأدهم، نسير على نفس الأرض وتحت سماء واحدة لكن كل واحد منا في مكان بعيد عن الآخر.. وكنت ضحية للألم الناجم عن شعوري المتواصل بالذنب، فمن يخالف المجتمع وعاداته وتقاليده صار مُذنبًا في عيون كل البشر.. وكنت المذنبة، الألم الناجم عن شعوري بالندم من كوني طرف في علاقة غير مشروعة يرفضها الدين، فمن تحب رجل غير زوجها وتفكر به وتمنحه مشاعرها صارت خائنة.. وكنت الخائنة، الألم الناجم عن كوني مريضة بالقلب وإن كان مرضي بأدهم أشد قسوة من كل تلك الآلام.. وكنت المريضة!

كنت أشعر أن التفكير برأسي يخنقني حتى خرجت من صمتي عندما سمعت صوت فريدة وهي تجري نحوي وتعانقني وتُقبلني في كل جسدي، تلك الحقيقة الكبيرة في حياتي والجزء القابع داخلي ولا يمكنني الهرب منه طالما حييت، الرباط القوي ويكاد يكون الوحيد الذي يجعلني هنا حتى الآن في بيت عامر.

أحضرت أمي العشاء للشرفة لكنني رفضت أن أتناوله فكنت غير قادرة بالمرة على الأكل حتى طلبت برجاء فلم أرد رجائها، وتناولت كوبا من العصير معها، واستغلت انشغال فريدة باللعب من حولنا وقالت كأنها تُريد التقرب مني ومُصادقتي: احكيلي يا ليلى.. ايه اللي حصل بينك وبين عامر يخليه يسيبك وميكملش أجازته معاكِ ويرجع تاني العريش؟

خرجت عن صمتي وشعوري وقلت بحرقةٍ: عامر علطول سايبني يا أمي مجاتش على المرة دي.. وقالت مُبررة: دا شغله يا بنتي وأكل عيشه.. سايبك عشان يقدر يعيّشك في مستوى كويس.

ـ وأنا فين يا أمي من حياته، وهو فين من حياتي؟ الحياة مش كلها شغل.. أنا إنسانة وبتحس وليها مشاعر، عامر ببعده قتل جوايا ناحيته أي مشاعر.. عارفه ايه الأصعب من قتل مشاعرنا يا أمي؟

ـ أيه يا ليلى؟

ـ إنها تتحول للسلب.. ودا حصل لي مع عامر، قتل ناحيته أي مشاعر وكمان ما قتلهاش وبس، دا كمان وصلني لمرحلة الرفض، برفضه وبرفض وجوده وبكره نفسي معاه..

ـ أنتِ في حد تاني في حياتك يا بنتي؟

ارتبكت وأنكرت: لا طبعًا مفيش اي حد في حياتي.. ولا حتى عامر يا أمي، واللي يربطني بيه ورقة جوازنا وفريدة.. إن كان على ورقة الجواز بسهولة ننهي كل اللي فيها وإن كان على بنتنا دي الحاجة الوحيدة اللي محسساني بالعجز ومخلياني أكمل حياتي مع عامر ومخلياني أقعد وأتكلم معاكِ دلوقتي يا أمي.

ـ عامر ناقصه إيه يا ليلى؟

ـ ناقصه إنه يكملني.

ـ يعني إيه كلامك يا بنتي؟

ـ ناقصه انه يكون في حياتي، ناقصه أحس بجد انه جوزي وأحس إني مراته، ناقصنا وجودنا في حياة بعض، أي واحده في الدنيا محتاجة تحس بقيمتها وبنفسها، تحس باهتمام حد ليها، تحس بالافتقاد، تحس بحد يقولها دايما أنا هنا موجود جنبك ومش هسيبك مهما حصل.. حاجات كتير يا أمي محتاجاها بس ما ينفعش أقولها لأنها تتحس وبس، وما ينفعش كمان أطلبها لإن في الوقت اللي هتجيني بعد طلب.. مُستحيل يوصلني إحساسها!

ـ وهتعملي إيه يا ليلى؟

قلت بيأسٍ: ولا حاجة.. هرضا بنصيبي وهحاول أعيش عشان خاطر بنتي!

نامت فريدة على الأرض عندما كانت تلعب، فحملتها أمي من الأرض على كتفها واقتربت نحوي وعانقتني بيدها الأخرى وقالت:

ـ أنا هنا يا ليلى جنبك ومش هسيبك مهما حصل.

تحاول أمي طوال حياها، أن تعوضني كل ما أحتاج إليه، فكانت في الماضي تعوضني احتياجي لأبي، وصارت في الحاضر تعوضني احتياجي لزوجي، لكن كل ما تفعله لن يزيد بالنسبة لي عن كونها أم، ولن تتمكن من سد الخانات الأخرى الفارغة بحياتي، فلكل واحد مكانته وأهميته في حياة الآخر.

توضأت وصليت ركعتين وفي سجودي تساقطت دموعي بغزارة كما لو أنني فقدت عزيزًا بالموت وكانت «**نفسي**» هذا العزيز الذي افتقدته، ودعوت ربي أن يمنحني القوة كي يُنسيني حُب أدهم وأبتعد عنه.. وأن يمنحني حب عامر وأقترب منه.

تبتعد ليلى عني كُلما جمعنا مكان واحد في المؤسسة، أعلم أنها تحبني كثيرا وأرى بعينيها صراعات أكثر، ومحاولات للبقاء مع أصوات تعلو بالرحيل، أشفق عليها أكثر مما أشفق على نفسي، فإن كنت أحتمل مرة فهي تنهار داخلها مرات ومرات، سأتركها تخوض تجربة قرارها بالبعد حتى أريحها من كل تلك العذابات، فأنا أحبها ولا أريدها أن تتعذب بسببي.

اتفقنا على البعد دون أن نتفق، ومرت الأيام طويلة على غير عادتها، نحتفظ بالحب داخلنا فقط، نتقابل في العمل دون أن تجمع عيوننا نظرة واحدة، فنظراتنا باتت من طرف واحد وخلسة دون علم الطرف الأخر، والشيء الوحيد الذي يجعلني قادرا على الاحتمال، أنني أراها كل يوم.

كان الأمر صعبًا عليّ أن أمنع مشاعري الحقيقية من التعبير عنها واستبدلها بمشاعر أخرى باردة، لكنني فعلت هذا مع ليلى، نتبادل التجاهل ونتصنع اللامبالاة ونفتعل السعادة وندّعي المثالية والكمال في حياتنا.

كان لدي اليقين أني الشخص الوحيد القادر على مُساعدة نفسي بنفسي، فلا أحد على هذا الكوكب قادر على محو «**ليلى**» من قلبي ومحو حُزني في بُعدنا، ذهبت للجمعية بعد انقطاع ليس بقليل، وكان الشيء الوحيد القادر على رسم بسمة حقيقية على وجهي دون تزييف، عندما أكون سببا في تقديم أي مساعدة لمن يحتاجها، وحدث شيء آخر أسعدني تلك الليلة عندما رأيت صديق عُمري «**محمد**» أمامي في مقر الجمعية، أتى لمقابلتي وأخذني معه للنادي الذي كُنا نلعب به ونحن صغار، ووجدت هناك مُفاجأة أبهرتني، عدد كبير من أصدقائي القُدامى يلعبون كرة القدم، فجريت أنا ومحمد نحو محل الملابس

الرياضية على ناصية الشارع واشترينا زيًا رياضيًا، ارتديت الزي الأبيض الذي يحمل شعار نادي الزمالك وارتدى محمد الزي الأحمر الذي يحمل شعار نادي الأهلي وانقسمنا لفريقين ولعبنا مباراة كاملة بكل حيوية ونشاط وسعادة حقيقية وفي كل هدف أحرزه أراها أمامي تصفق لي، فيتجدد حماسي باللعب، انتهت المُباراة بالتعادل وسلمنا على بعضنا وتبادلنا النكات والضحك، وانتهى الجزء الأول من سهرتي بالتقاط أحد الأصدقاء صورة جماعية للفريقين وكنت بينهم في المنتصف، وكم كنت أتمنى وقتها أن تأخذ ليلى لنا هذه الصورة، فأني من عُشاق تصويرها الذي يُظهر الروح قبل معالم الشكل.

ذهبت مع محمد للمقهى نلعب دورا من الشطرنج ونكمل النصف الثاني من سهرة الليلة لكن تلك المرة لم ألعب كما كنت في السابق، وانهزمت في وقت قياسي، وضحك محمد كي يستفزني وقال:

ـ المشاريب على حسابك يا حبيبي.

واستمر بالضحك لكن في تلك اللحظة تذكرت ليلى عندما طلبت مني في مرة أن أعلمها الشطرنج، وقتها سألتها: اشمعنى الشطرنج يا ليلى؟

وقالت بتفكيرٍ مُختلف: عشان أخلي الملك يخسر.

اندهشت: مش شرط تتعلمي تلعبي عشان الملك يخسر..

ردت بقوة من أمرها: لا شرط.. عشان أخليه يخسر بإرادتي!!

كان ردها غريبًا وبقيت لوقتٍ أفكر به ولماذا تريد أن تفعل هذا، وكي أحل هذا اللغز اتصلت بها سألتها عن معنى كلامها وقالت بألمٍ:

ـ كل حاجة بعملها في حياتي بكون فيها مجبرة.. نفسي مرة أجرب أني اختار.

ـ وأول ما تختاري يا ليلى، تختاري تكون نهايتك خُسارة؟

ـ اخسر بإيديا احسن بكتير من أني اخسر مجبرة يا أدهم..

ـ مش فاهمك يا ليلى..

ـ في ظروف بتحصلنا في حياتنا.. تجمعنا وتفرقنا، ترتيبات مالناش دخل بيها، علاقات بنلاقينا طرف فيها من غير ما نحس، وتنتهي حكايات كتير عشناها مع ناس كانوا في وقت من الأوقات أقرب مننا لنفسنا، عشان كدا الأفضل إننا ننهي أي علاقة بإيدينا شايفين إنها مش هتستمر قبل ما الظروف تجبرنا على كدا.

ـ افهم من كدا انك بتفكري تبعدي.

قالت وكأنها تهرب من الإجابة: علمني الشطرنج الأول.

خبط محمد قطعة من الشطرنج بالطاولة وقال:

ـ مالك يا عم أدهم سرحت في إيه ولا زعلت عشان كسبتك؟

شربت آخر قطرة في فنجان قهوتي وقلت:

ـ ما كنتش أعرف أنها هتتعلم الشطرنج بالسرعة دي يا محمد.

قال الصديق مُستفهمًا: بتتكلم عن مين يا أدهم؟

أجبته وقلت عن الحبيبة «**ليلى**» وسردت له قصة قلبي معها لكن تلك المرة بالتفصيل، عن البدايات والصُدف والمواقف إلى ما وصلنا إليه.

فسألني الصديق: وأميرة يا أدهم قصرت معاك في حاجة؟؟

قُلت بحيرةٍ من أمري: أميرة مراتي وأم ابني وعمرها ما قصرت، بالعكس واخده بالها من البيت ومن حمزة أكتر ما بتاخد بالها من نفسها.

أمسك بطرف الخيط ووضع يده على الجُرح وقال: مهم كمان تاخد بالها منك..

فسكتُ قليلًا وأجبته: بصراحة «**لا**» يا محمد، هي فاكرة لما تاخد بالها من كل حاجة في البيت كأنها بترضيني، أنا وهي ماشين في طريقين عكس بعض، كل اهتماماتها هتطبخ إيه النهاردة على الغدا وهتعشيني ايه وتغيير مكان الأنتريه وتبديل الأوض، على طول مشغولة عني بالبيت، تغيير دهان البيت أهم مني.

قال وكأنه يُقنعني: كل دا ليك يا أدهم وعشانك..

ـ كنت فاكر كدا قبل ما أقابل ليلى.. طلعت غلطان وعرفت إننا بشر ومحتاجين نحس بوجودنا الحقيقي مع ناس، مش مجرد نكون سد خانة وخلاص..

ـ انا فاكر يا أدهم انك اللي اخترت أميرة محدش أجبرك عليها.

ـ فعلا.. ومش بنكر أني كُنت بحبها، بس الحياة بينا بقت مُملة، وكل ما أرجع البيت ألاقيها نايمة من تعب طول النهار، اطلب منها نخرج سوا، ترفض عشان مُرهقة وتعبانة.

قال طالبًا مزيد من الفضفضة: كمل يا أدهم للآخر أنا سامعك يا صاحبي.

ـ أميرة مش وحشة.. بالعكس طيبة اوي، لدرجة إنها سابت الشغل عشان تتفرغ للبيت تماما بعد ما عرفت أنها حامل، ومن الوقت دا ولحد دلوقتي وهي بعيدة عني وبتقتل أي فرصة تخليني أقرب منها، مشكلة أميرة أنها ست عادية جدا، عايشة من غير هدف من غير أحلام أو طموحات، وأقصى طموحاتها أنها تشتري مكنسة بالكهربا جديدة مثلًا.

ضحك محمد وقال: ما ينفعش أقولك سيبها عشان نفسها تشتري مكنسة بالكهربا.

لم أضحك وقلت بجدية: أكيد ما ينفعش أسيبها مهما كان دي أم حمزة!

ثم قال مُندفعًا كأنه وجد الحل العبقري: لكن ينفع أقولك أتجوز ليلى..

قلت مُحبطًا: وداكمان ما ينفعش يا محمد..

واستأذنت منه كي اهرب من الإجابة على سؤاله التالي الذي أتوقعه عن سبب عدم زواجي بليلى، وكان من المستحيل أن أخبره بما لا يُمكن قوله أبدًا بأنها متزوجة، ويظن بها سوءً، وكررت داخلي:

«من لا يحيا نفس حالتي لن يعقل قولي أبدًا».

عدت البيت ووجدتها على غير عادتها تنتظرني، وطلبت مني أن أجلس معها قليلًا وقالت: عاوزاك تزودني الشهر دا في مصروف البيت عشان أشتري ستاير جديدة.

ـ حاضر يا أميرة.

- عاوزه أروح ازور أهلي في المنصورة يومين وارجع على طول.

- روحي يا أميرة.

- تصبح على خير يا أدهم.

- وأنتِ بخير يا أميرة.

ولكي أمنع التفكير في ليلى من التسلل لعقلي.. نمت بجانب أميرة تلك الليلة وكان لنا وقتًا طويلًا منفصلين في الفراش، حاولت أن تتقرب مني، وكأنها تُخبرني بطريقتها وبهيئتها وشكل ثيابها أنها تُريد حقها الشرعي، وشجعتني على ذلك عندما اقتربت أكثر، وتلاقت الأجساد لأرواح مُتنافرة، وفعلت معها ما يُفعل بين الأزواج بتقليديةٍ شديدة، ففي علاقة الفراش نصير كما الحيوانات التي تسعى لإشباع غريزتها دون الحب، لكن الإشباع مع الحب يُشعرنا بآدميتنا.

أديت مُهمتي الزوجية على أتم وجه وكأن هذا ما هو إلا تأدية واجب، ونامت أميرة وبقيت أنا متيقظًا دون نوم، أدخن السجائر!!

غريبة أحوالنا نحن البشر.. أجساد مُتقاربة وأروح راحلة، ننام مع أحدهم على نفس الفراش وتحمل رؤوسنا نفس الوسادة ويجمعنا سقف غُرفة واحدة ونأكل من نفس الطبق، ولكن كل منا في عالمه الخاص، يحيا به بمفرده خلف أسوار من الأيام العادية المُتشابهة بلا أي حُب أو مشاعر، وستظل هذه المعادلة هي الأصعب على الإطلاق: البعض هُنا لكنهم ليسوا هُنا، والبعض هُناك لكنهم هُنا.

كانت زيارة عامر هذه المرة غير متوقعة، لأول مرة في تاريخ زواجنا يضُمني بين ذراعيه هكذا دون مصلحة ذكورية من وراء هذا، وطلب تجهيز حقيبتي على الفور وقضاء أسبوع معه في العريش كي نُغير جوًا، ونعيد ذكريات شهر العسل على حد قوله، ولم يعط لي فرصة التفكير والرد بالرفض أو القبول.

تركنا «**رودي**» مع أمي هكذا كُنت أناديها دائمًا، وذهبنا للعريش بسيارته الخاصة، طوال الطريق يحدثني في أشياء كثيرة وإجاباتي عليه مُختصرة أو أشاركه فقط بهز رأسي، فقال: مالك يا ليلى؟

قلت مُباشرة: مستغرباك الحقيقة.. جرعة الاهتمام الكبيرة دي حصلت مرة واحدة!

ـ حسيت أني كنت مقصر معاكِ وفكرت إن الشغل مش كل حاجة ولا الفلوس، أنتِ أهم من أي حاجة تانية عندي..

مسكت هاتفه بحجة معرفة الوقت وبحثت في سجل الهاتف ووجدت ما فكرت به، اتصال من أمي أول أمس ومن المؤكد أنها أملت عليه بعض النصائح كي تُلفت انتباهه أن هناك واحدة تُسمى «**ليلى**» في حياته.

ثُم امسك يدي وقال: يلا بينا يا ليلى نفتح صفحة جديدة.

ابتسمت ابتسامة باهته ووضعت سماعات الهاتف في أذني كي تأخذني قليلا عن ثرثرة عامر التي لا تجدي وكي أشعر بجمال طريق السفر.

وصلنا للعريش في المساء، واستقبلتنا حماتي في بيتها الكبير بأشهى المأكولات، وبعد العشاء ذهبنا إلى بيت أخي وتوأمي وحبيب قلبي «**موسى**»

وكانت مُفاجأة له أن يراني أمامه، فضمني بين ذراعيه بقوة تكاد أن تكسر ضلوعي برفقٍ، تذوقت في ضمته حنان أبي وتذكرت تلك اللحظة التي ظهرت بها نتيجة الشهادة الثانوية العامة وكُنا في نفس الصف الدراسي معًا كما كنا في كُل سنوات الدراسة السابقة، وحصلت على مجموع أكبر منه جعلني ألتحق بعد ذلك بكلية التربية قسم أحياء وكلما سمع أحد تخصصي يندهش ويضحك، لكن هو حال العمل بمصر، تعمل ما ليس لك به أي علاقة بمجال تخصصك، فمن تخصص أحياء لمدرسة موسيقى؛ لدراسات عُليا بقسم صحة نفسية، لكن حالي أفضل من غيري بكثير، فمثلًا في مرة ركبت تاكسي فوجدت سائقه كان زميل لي بنفس دُفعتي، لذلك لا تندهش ولا تتعجب ما دُمت تعيش في مصر، فالدراسة شيء والعمل شيء آخر تمامًا.

أما موسى فلقد حصل على مجموع أقل مني جعله يلتحق بكلية التجارة، ومع ذلك قبّله أبي وأخذه بين ذراعه فرحًا ووقفت أنتظر دوري في عناق أبي أو أي كلمة منه ولو حتى «**مبروك**» لكنه بخل عليّ بها وأحرجني أمام أهلي وأمام حسين في ذلك الوقت.

بالرغم من تفرقة مُعاملة أبي بيني وبين أخي، إلا انني لم أكره أخي يومًا، فلا ذنب له، وكنت دائمًا أبرر اختلاف المُعاملة بيننا وأمنع نفسي من أي إحساس بالضيق بشأن هذا الأمر، فلأنه أخي لن أكرهه، ولأنه أبي سأظل أحبه!!

ها أنا أسير جانب عامر على بحر العريش ليلًا، أتأمله بعينٍ مُحايدة، بعينٍ أرادت أن تمنحه فرصة ثانية للحياة معه، استمع إلى حديثه وأحاول أن أتأثر به، أحاول أن أتلمسه من الداخل، لكن قلبي يتعذب ويرفض، فحواسي التي كانت مع عامر في يوم ما صارت الآن كُلها ضده، ومشاعري التي كانت تتجدد في

صدري إليه بلا انقطاع.. صارت الآن صدئة بلا حركة.

وكان كل من حولي كالجماد؛ من بحرٍ وليل وطبيعة بأكملها ورأيت نفسي كما لو كنت في لوحة بألوان مُزعجة.. مجرد لوحة أصلها من ورق، فلم أشعر بجمال الأشياء وكأنني أسير في اتجاه آخر بمفردي، أبحث في خيالي عن أدهم، استحضر موقف جمعنا أو كلمة نطق بها ولمستني كي أبتهج ولو قليلًا، وكنت جسدا يسير على قدمين بلا روح.

شعرت وكأنني مُمثلة فاشلة في فيلم تُحاول بطلته أن تُتقن الدور وتحفظه، وتقول داخلها حتمًا سأنجح في تأديته وسأصير من مشاهير الزمان، لكن مع أول أمر لها من المخرج بأن تتكلم وتؤدي، تنسى الكلام وتقف جامدة بلا أي انفعال، وبعد محاولات من تكرار تمثيلها للمشهد ذاته، تُعلن فشلها وتنسحب بنفسها قبل أن يرفع المخرج عصاه ويخرجها بالأمرِ، وبالفعل انسحبت من هذا الفيلم القصير البائس وطلبت من عامر أن نعود للبيت، فما أصعب تمثيلنا وتزييفنا للمشاعر، فإن لم تكن مشاعرنا حقيقية.. سنفشل حتمًا في تأدية الدور، وإن تمكنا من الكذب.. لن تتمكن مشاعرنا أبدًا!

كانت «**ليلى**» هاجسي الأكبر وإليها كُل يقيني، أنتظر عودتها للعمل بعد أجازتها المُفاجأة، انتظر رؤيتها بأقصى حدود الصبر، انتظر عناقًا طويلًا يمحو ذنب الغياب وربما يمحو قسوة الانتظار.

عادت أميرة بعد ما كانت في زيارة لأهلها في المنصورة وفي الحقيقة لم أشعر بفارق غيابها عن وجودها، فكنت أنظف البيت وأغسل وأطبخ وكل شيء مكانها وأدركت أن كل ما تفعله ليس بالشيء الخارق للطبيعة، أفعل كل ما تفعله ولكن ليس بنفس درجة الاحترافية التي كانت عليها لكن أيضًا ليس بالفارق الكبير.

عانقت «**حمزة**» بشدة فالبيت كان يفتقد لحسه وشقاوته، وأخذته هذا النهار للملاهي وطلبت من أميرة أن تأتي معنا، لكنها رفضت وفضّلت أن تظل بالبيت لِتُصلح به ما قد أفسدته أثناء غيابها، وهُناك قابلت محمد صديقي مع زياد ابنه.

لم يتركا الطفلان لعبة إلا وقد لعبوها، يتنقلون من هنا إلى هنا وما عليّ أنا وصديقي إلا دفع ثمن اللعب بطيب خاطر وكلنا سعادة، لكن محمد كان بحالٍ مُتغير، فرأيته لأول مرة مهمومًا، أخذته إلى أقرب طاولة وطلبت لنا فنجانين من القهوة وسألته بنوع من الفُكاهة:

ـ مالك يا عم محمد.. ما يكونش بتحب أنت كمان زي صاحبك ومطايلش؟

فأجاب وكأنه يقذف جبهة: لا.. أنا عيني مليانه بمراتي وعمري ما أحب عليها.

أزعجني رده الصادم، لكن هذا ليس مجال حديثنا وأكملت: باين عليك مهموم!!

قال مُتأثرًا: مراتي حامل..

قاطعته: مبرووك.

قال بكآبة: مبروك إيه بس؟ عارف يعني إيه حامل، يعني ديوني هتزيد.. دا أنا مستلف منك ومن طوب الأرض ومش عارف أسد ديوني، ومرتب واحد في البيت مش مقضينا حتى لأسبوع واحد في الشهر.

أخرجت من جيبي كل ما به من نقود لكن محمد رفض أن أساعده ورآها إهانة مني له وقال برجاءٍ: لو عاوز تساعدني.. شوف لي شغل بعد الضهر.

حزنت لحال محمد ولغيره من العاملين في التعليم، فراتب مُدرس لا يفي أبدًا، ولا يتناسب بغلاء أسعار هذه الأيام، فمعظم راتبه يصرفه إيجاراً للشقة التي يسكن بها، وكل مسئول بالتربية والتعليم يكون شعاره في البداية الاهتمام برواتب المعلمين باعتباره كان يومًا منهم، ولكن سريعًا ما ينسى شعاره هذا عندما يجلس على الكرسي ويحتل منصب كبير، وينشغل بعقد المؤتمرات والندوات التي تدعمها وسائل الإعلام وينخرط في طريق الضوء والشهرة.

نحن بحاجة إلى من يعي بصدق معاناة المعلم، معاناة معنوية ومادية، سوء معاملة وقلة احترام وتقدير، نحن بحاجة إلى تغيير منظومة بأكملها أساسها طالب يحفظ دون فهم، بها مناهج غير مؤهلة لتخريج دفعات من الطلاب قادرة على العيش وتحمل المسئولية، مناهج لها صلاحية مُحددة تنتهي عند انتهاء

الامتحان بها، نحن أقدر الناس على قتل مواهب أطفالنا، وخروجنا من الترتيب العالمي للتعليم ليس من قليل وبالفعل نستحقه.

أشفقت على محمد وعلى نفسي قبله عندما كنت اعمل بالتدريس قبل أن أنتقل للعمل بالمؤسسة وأشفقت على حال كل معلمي مصر الذين يحلمون بتأشيرة سفر إلى أحد الدول العربية تُقدّر تعبهم ومجهودهم ماديًا.

لم يتغير عامر كثيرًا، فكان على نفس حاله، يتركني طوال النهار ويعود في وقت الغداء يأكل وينام ساعة ويذهب للعمل بالفترة المسائية، لم اشعر بالفارق الكبير هنا في العريش، فمن اعتاد على شيء صعب ان يُغيره، وكل إنسان مغلوب بطبعه فالطبائع لا تتبدل أبدًا، وكان حال عامر معي غير قابل للتغيير.

الوحدة إحساس قاسي عندما نكون بالفعل بمفردنا لكنها تكون أشد قسوة عندما نكون في صحبة أشخاص يشعروننا بها، عالمي فارغ دون الحبيب وان كان مُزدحمًا على آخره بكل صنوف البشر.

أخذني أخي في جولة معه لسوق العريش، واشتريت أشياء كثيرة من ملابس وهدايا لصديقاتي وكان أدهم أول من تذكرته بهديةٍ، كانت بسيطة جدًا عبارة عن ميدالية فضية صغيرة مُنقسمة إلى اثنين بنفس الشكل سأعطي واحدة منها له والنصف الثاني سيبقى معي، واعتقد حينها موسى أنها لعامر وتركته على اعتقاده هذا، وكنت سعيدة أني بصحبة أخي ورأيت به خوفه عليّ من المارة وكان يُرشدني أن أسير هنا وهنا ويمسك يدي ونذهب معًا للجهة الأخرى، حتى ابتعدنا عن ازدحام السوق ووقفنا معًا على سور البحر الكبير.

تأملت البحر وتأملت الهدية التي كانت في يدي وسرحت، وكنت أفكر في طريقة كي أعطيها لأدهم بعدما أصبحنا لا نتحدث ولا نعرف عن بعض شيئًا.

قال أخي: أول مرة أشوفك مبسوطة هنا في العريش من بعد ما جيتي.

قلت مبتسمة: عشان أنت معايا يا موسى.

قال: ليه مش بتكوني مبسوطة وأنتِ مع عامر؟

قلت: عشان قتل جوايا إحساسي بالسعادة معاه.

قال: حاولي يا ليلى.. جربي تديله فرصة تانية!!

سألته: لو معاك وردة ورويتها واهتميت بيها يحصل إيه؟

رد دون تفكير: أكيد هتكبر.

ـ ولو بطلت ترويها؟

ـ هتموت وتدبل يا ليلى..

ـ لو رجعت ترويها تاني يا موسى من بعد ما دبلت.. هيحصل أيه؟

سكت أخي وعلمت انه قد فهم مقصدي، فما يفعله عامر معي الآن ما هي إلا محاولات فاشلة، لأنني قد مت معه وعلى يديه ذبلت.

ساحرة العريش ليلًا وساحر بحرها، لكنه صوت أدهم يَنقُصني، فكرت أن أتصل به كي اسمعه فقط دون حديث، لكنني قاومت، ووجود أخي جانبي ساعدني على عدم الاستجابة لرغبات قلبي وضعفي، وبعد دقائق وجدت رقمًا غريبًا يتصل ورديت بسرعة وقلت: آلو.. مين معايا؟؟

سمعت صوته.. وخفق قلبي سريعًا وتغير لون وجهي في الحال وعيني قد لمعت وفرحت كثيرًا، فكم كنت أحتاج إليه الآن أكثر من أي وقت مضى وكم كان الحبيب سريع الاستجابة!

وقال بصوت أصدق ما يكون: وحشتيني يا ليلى!!

نظرت لعينِ أخي التي كانت تترقب ردود أفعالي، وافتعلت الانزعاج وقلت بصوت قاسي «**الرقم غلط**» وأغلقت الهاتف في وجه الحبيب.

فقط حين نسير وراء قلوبنا واندفاع مشاعرنا.. نندم، اندفعت وراء مشاعري واتصلت بها دون تفكير، لأنني ضعفت، وكانت النتيجة أنها أغلقت الهاتف في وجهي، تعلمت ليلى القسوة بمرور الوقت.. وكنت لا أتعلم، لُمت نفسي لأنها أمرتني بالسوء وكنت مُنفذًا لأوامرها، والنتيجة قلة كرامة وتقدير.

وبعد نصف ساعة من تأنيب نفسي وتهذيبها، وجدت رقمها ونسيت في لحظة ما حدث منها من غلق الهاتف بوجهي، وسمعتها تقول: وحشتني يا حبيب!!

كم أعشقها عندما تُناديني بالحبيب وأكملت بدموعها: محتاجة لوجودك جنبي حالًا، كل حاجة «**هنا**» نقصاك، وسألتها: هنا فين يا ليلى؟

ـ أنا في العريش.. عامر خدني معاه يا أدهم.

كان سماعي لهذا الاسم «**عامر**» كفيل أن يصيبني بالاختناق، فلم يمر اسمه عاديًا على أذني، بل يصحبه تخيلات مُميتة، كم أحقد عليه عندما يأخذ جزءً مني بل ويأخذ روحي معه!

وقالت مُعتذرة: سامحني قفلت معاك من شوية عشان أخويا كان جنبي.

شعرت أني قد ظلمتها ورحلت كل الاعتقادات الخاطئة بعيدًا، وطلبت منها أن تعود سريعًا لأنني من غيرها ينقُصني الكثير.. فهي تُكملُني!

حين حدثتني صارت كل الأشياء مُبهجة في عيني، وعلى حسب الحالة التي تكون عليها قلوبنا نرسم صور الأشياء من حولنا، وعُدت إلى نشاطي وذهبت

للعمل والكل لاحظ سعادتي، وصرت أردد قولها «**وحشتني يا حبيب**» في كل ثانية وكل دقيقة، وأدركت أن كلمة واحدة من إنسان تُحبه كفيلة أن تخلق منك إنسان آخر يعشق الحياة وتُبدل حالك للأفضل.

أخبرتني نور أنني كُلفت بعد أسبوع من اليوم بحضور مؤتمر الوزير مع زميلتي «ساره»، هذه الفتاة النشيطة بدرجة لا تُصدق فكانت تُشبه ليلى إلى حد ما مع أن ليس لحبيبتي شبه، تعمل أشياء كثيرة في نفس الوقت، تُخطط وتنظم وتتابع وتصمم وترسل رسائل عبر البريد الإلكتروني للمؤسسة، كما أنها الذراع الأيمن لنور، ونجاحها نابع من نجاح حياتها الزوجية، وفي كل احتفالية أو مناسبة تبع العمل أو خارجه يذهب معها زوجها، طموحها فرض نفسه على الواقع، كم أعشق المرأة الطموحة التي يفتخر بها كل من يعرفها وكم أخجل من تواضع طموحات زوجتي وأفتقد هذا بها!!

زوجتي ليست بالمرأة الأمية أو الجاهلة، بل لديها شهادة جامعية من جامعة الأزهر كلية الدراسات الإسلامية، وكنت لا أعرفها ولا يوجد بيننا أي صلة قرابة، لكن أمي رشحتها لي من خلال سؤال أحد الأقارب عن «**عروسة**» بنت حلال ومطيعة، وعندما جلست معها المرة الأولى وسألتها عن أحلامها، وهل ستكمل دراساتها؟ هل ستعمل في مجال تخصصها أم ستسلك طريقًا آخر؟ كانت إجابتها غير واضحة تتلخص في «**معرفش لسه**»..

تردت في الارتباط بها لكن أمي كان رأيها مُخالفًا لرأيي وبررت إن أميرة عبارة عن عجينة طرية، أشكلها كيفما أريد.

تفكير أمي متواضع كثيرًا بما أننا نعيش في مُجتمع قروي، المرأة الناجحة به هي المُتمكنة في الطبيخ والغسيل وغيرهما من شئون البيت، وبعد الزواج وجدت أميرة نسخة مكررة من أمي ومن نساء القرية، فلا مرة سمعتها تطلب شيء لنفسها ولا مرة سمعتها تقول «لا».

ودخل عقلي في مُقارنة سريعة بين ليلى وأميرة، شتان بينهما، فالأولى ناجحة طموحة والثانية بلا هدف في الحياة، الأولى تمنيت أن أخبر العالم كله عنها والثانية لا أريد أن يعرف أحد عنها شيء، الأولى تمنيتها زوجتي بجانب كونها حبيبتي والثانية تمنيتها حبيبتي بجانب كونها زوجتي لكن الواقع يسعى دائمًا لمُخالفة أمنياتنا وما نطمح إليه.

بساطة أميرة الشديدة في الملبس وسلوكها العفوي القروي، جعلاني أخجل من أن تُصحبني في المؤتمرات والأماكن العامة، الفارق بيننا كبير جدًا، أكبر من مجرد كلام، الفارق فعل وأسلوب حياة، فأنا رجل بحاجة إلى امرأة أفتخر بنجاحاتها أمام العالم لا امرأة تتباهى بنجاح طعام الغداء ودقة صُنعه لجاراتها.

الصُدفة الرابعة

لازالت الأقدار تُحركنا، ولازالت تُبكينا وتُضحكُنا، وكأننا دُمى بلا حول ولا قوة، لكنني أعترف: أحببت قدري مع الحبيب!!

اعتذرت «ساره» عن حضور مؤتمر الوزير الثاني لسفرها المفاجئ مع زوجها إلى أوكرانيا، وكل الزملاء مُنهمكين في ترتيبات افتتاح فرع جديد للمؤسسة بالإسكندرية ولم تجد نور غيري كي تُكلفه لحضور المؤتمر وخاصة

إني كنت عائدة من إجازتي وليس لدي أي عمل مكلفة به في الوقت الحالي فوافقت.

قاعة المؤتمرات كبيرة وعندما دخلت من بابها الأوسط نظرت حولي؛ كي أختار مكان مناسب أجلس به وتكون به رؤية المسرح واضحة، ونزلت على السلم متوجهة إلى مقاعد الصفوف الأمامية، وانطفأت الأنوار فجأة ودخل الوزير من باب جانبي غير مرئي ومعه حاشيته من كبار المسئولين وتم الترحيب به من قبل مُنظم المؤتمر وحان موعد إلقاء كلمته.

تقريبًا كل كلمات المسئولين مُكررة وكل وعودهم بالتغيير مُتشابهة، وكأن التغيير والإصلاح بحاجة إلى تدخل إلهي أو مُعجزة كبيرة لازلنا نحن البشر عاجزين عنها، وقال الوزير بثقةٍ وكأنه يمتلك عصا سحرية:

ـ هتتفاجئوا بإصلاحات كتير الفترة الجاية ومش هتكلم عنها هتشوفوها بنفسكم وكلها مسألة وقت وتتأكدوا من صحة كلامي.

وبعد كلمة الوزير المفعمة بالمُسكنات والآمال الوردية وصلنا للفقرة الثانية وأعطى مُنظم المؤتمر الفرصة للحضور وفتح باب الحوار والمُناقشة، وكنت أستمع وأدوّن كل ما أسمعه لرفع تقرير به للمؤسسة.

مدت سيدة من الحضور يدها لطلب الحديث، ووقفت أمام الجميع ولم يُشغلها أن يقيلوها من عملها أو أن ينقلوها لمكان عمل بعيد كعقاب تطاولها على أسيادها، سيدة مثلها بألف رجل، لديها من الشجاعة ما جعلنا نُصفق لها حتى تألمت يدانا، كلامها خرج من قلبها واخترق قلوبنا، وقفت

بشجاعة الأسد وقالت كل ما نريد قوله، لخصت همومنا كمعلمين في خمس دقائق من سوء معاملة المعلم في أي مكان يذهبه، من تدني المُرتبات التي تضيع في سداد الأقساط، ومن اتهام البعض أننا مجرد «**حرامية**» وإذاعة هذا اللفظ حرفيًا عبر الصُحف المصرية والغير مصرية، دون أي تكذيب رسمي من قِبل قائليه بالرغم من إنكارهم قول هذا بقولهم «**ما شتمك إلا اللي بلغك**» ونحن لم يصدر منا هذا.

وقالت أيضًا المُعلم هو الذي يُخرج أجيالًا من الضابط والطبيب والمحامي وكذلك الوزير وكل العاملين بالدولة من صغيرها لأكبر مسئول بها، المعلم الذي يتحمل الضغط النفسي والعصبي خلال وقوفه في الفصل بين أكثر من خمسين طالبًا، ينظر لهذا ويستمع لآخر ويصوب خطأ ثالث، ويُصحح الدرس ويُشرف ويُحضّر ويُنظم وأشياء أخرى وقد يصاب في أي لحظة بأمراض الضغط والسكر، المُعلم الذي يقابل كل هذا بالمهانة وعدم التقدير، وختمت حديثها بسؤال واحد انفعلت به.. إلى متى سيظل وضع المعلم هكذا سيادة الوزير؟

أخرجت كل ما في نفوسنا للدرجة التي عجز بها ضيوف المنصة من الرد عليها، وبعدها أعطى مُنظم المؤتمر الدور لشخص آخر للحديث.

اخترق صوته أذني، انه صوت أدهم يتحدث ويسأل أمام الجميع، تركت الورقة والقلم ونظرت نحو الاتجاه الذي يصدر منه هذا الصوت المُميز لقلبي، وقال:

- برحب بوجود سيادة الوزير اليوم معانا وبعبر عن مدى سعادتي لمشاركتي في هذا المؤتمر، وكنت حابب أعمل مُداخلة بسيطة عن حال زميلي.. المشكلة دي ممكن تشوفوها حضراتكم أنها خاصة، لكن في الواقع هي مُشكلة عامة،

مشكلة إنسان ذنبه انه يمتهن التدريس، ودا معناه انه مش عارف يساير العصر وغلاء الأسعار، انه مالوش أي دخل تاني أو فرصة شغل تانية بعد المدرسة، انه عشان مش ماشي في تيار الدروس الخصوصية وان كنت شايف من وجهة نظري إن لا دا عيب ولا حرام في ظل ظروفنا، دخل مُعلم مصر مُقارنة بدخول المعلمين على مستوى بلاد العالم ما هو إلا مصدر للشفقة..

امتلأت القاعة الضجيج منهم المؤيد ومنهم المُعارض وأكمل أدهم:

ـ أحنا مش عايزين كلام شعارات، أحنا محتاجين حل جذري للمشكلة، يا إما توفروا للمُعلم خدمات في الدولة دون مُقابل يا إما بلاش تمنعوا الدروس الخصوصية وتسيبونا ناكل عيش يا إما بلاش تغلوا في أسعار السلع يا ترفعوا المُرتبات وتشيلوا عننا المُعاناة.. يرحمنا ويرحمكم الله!!

صفق الحضور لأدهم وصفقت بينهم بحرارة، لأنه لمس معاناة حقيقية كثرت بها الوعود دون فعل.. فإصلاح التعليم يبدأ من المعلم، ولن ينصلح حال المُعلم إلا من الدولة نفسها.

واتصلت بي نور وطلبت مني أن آخذ صورة مع الوزير من باب توثيق الحضور لنشرها عبر أحد الجرائد تحت عنوان رئيسي يحمل مشاركة مؤسستنا، وصعدت المسرح عقب نهاية المؤتمر مباشرة لتنفيذ طلب نور وعلى المسرح قابلت أدهم.

حين رأيتها وتلاقت الأعين.. طار قلبي نحو قرص الشمس، يمحو صفحة الغياب من الأذهان، وتلك النظرات الأليفة التي تتحدث بكل لغات الاشتياق والافتقاد، أعانقها من على بعدٍ، أكره تلك المسافات التي بيننا، أكره الحواجز التي صنعها البشر، أقترب وتقترب، أهمس وتهمس، أشهد أنها حبيبتي وتشهد أني حبيبها.

وعقب المؤتمر سيرنا نحو موقف العربات، وأخذنا واحدة منها ذاهبة نحو الإسكندرية، مات تفكيرنا، مات خوفنا، مات شعورنا بالآخرين وتضاعف شعورنا بأنفسنا فقط، واندفعنا نحو الجنون، بالجنون فقط نحيا ونعشق.

جلسنا على المقعدين الأماميين بجانب السائق، وهمست ليلى في أذني بصوتٍ مُتعب: عاوزه أنام يا حبيب!!

قلت بصوت دافئ: ريّحي راسك على كتفي..

لكنها خجلت أن تفعل هذا، ومع مرور الدقائق وضعت رأسها تدريجيا على كتفي، وتعانقت أصابعنا وكانت الشمس تغرب من حولنا، وصوت الأغنية التي نعشقها في أذننا بفضل سائق العربة وكأنه شغّلها خصيصًا لأجلنا.

نُرددها معًا بصوت قلوبنا «**في جوه قلبي حاجة مستخبية**»، أفتح يدها من حين لآخر اكتب على كفها مرة بإصبعي ومرة بشفتي، لمستي لها تُذيبني وتُذيبني معها، تجعلني أنهار وأتلاشى كقطعة جليد في أشد الأوقات حرارة وكنا بالشتاء، وكانت مثلي وأكثر، نتبادل المشاعر بصمتٍ دون ملاحظة السائق والرُكاب.

ثمة لحظات أشعر أن حياتي مكتملة إلى الحد الذي أرى السعادة تسير نحوي على أقدام، هنا بجانب ليلى وأمام البحر، وثمة لحظات يبدو بها عمري مجرد حلم على جناح طائر في الفضاء يسعى نحو اللانهايات، فيصيب قلبي قبضة خوف منها، لكن أُصبر نفسي بما أكون عليه الآن، وتقول ليلى:

ـ خايفة من بُكرة يجي وماتكونش فيه جنبي.

فكرّت في كل مخاوفها هذه وقبل حتى وأن تنطق بها لكنني قلت لنفسي ولها: خوفنا من اللي جاي مش هيمنع حدوث الواقع، لكن بيمنع إحساسنا بجمال اللحظة اللي بنعيشها دلوقتي، ممكن ما تفكريش في حاجة غير اللحظة اللي عايشينها دلوقتي يا حبيبة؟

عانقتني وقالت وهي تتعلق برقبتي كالأطفال: ممكن يا حبيب.

كُنا في أوائل فبراير والشتاء لازال يقرص أجسادنا بردًا وخاصة هنا على شاطئ الإسكندرية، فأخذنا «**تاكسي**» وذهبنا إلى شقتي التي كنت قد اشتريتها العام قبل الماضي لقضاء أجازات الصيف لنحتمي بها من البرد ومن كُل الناس.

ترددت ليلى في أن تصحبني تلك الليلة خلف باب مُغلق علينا، لكن لم يكن هناك أي حل بديل لي ولها، فلا أحد تعرفه بالإسكندرية غيري.

سعيدة تلك الليلة.. سعيدة جدًا، دخلت البيت وكأنني صاحبته ولم أشعر بأي نوع من الغُربة، وتجولت فيه بعيني سريعًا وكان بي شيء من الخجل، وقال:

ـ هروح اشتري من تحت أكل.. تكوني غيرتي لبسك، عندك الدولاب جوه اختاري منه اللي يعجبك، تحبي أجيبلك حاجة مُعينة معايا؟

قلت بضحكٍ: معجون أسنان..

ـ حاضر يا ليلى حاجة تاني؟

ـ وشوية فاكهة.

ـ حاضر يا قلبي.. حاجة تاني؟

ـ وقهوة وجبنة وفينو.

ارتفع صوته بالضحك وقال: كفاية كدا.. أنتِ هتخلصي مصروف الشهر في ليلة واحدة..

أعلم انه يمزح وقال هذا لأنه كان لديه نفس الإحساس الذي وصلني، انه بالفعل بيتنا وكأنه زوجي؛ فهذه النقاشات وأمثالها تحدُث بين أي زوجين.

أتقنا دور الأزواج معًا حتى النهاية، فلم يكتفِ عند حد طلبات شراء طعام العشاء، بل عندما عاد.. كان للأجساد حوار ونقاشات من نوع آخر، وهذا ما كنت أخشى حدوثه طوال طريقي معه للإسكندرية، فأجسادنا العطشى لم تكتف بعد، وكلما فرغنا طلبنا المزيد.

جاء الصباح علينا ولم ننم إلا ساعة واحدة تلك التي تسبق الشروق مُباشرة، وكنت نائمة على ذراعه، استيقظت قبله وتأملت وجهه، كل ما به أعشقه، تفاصيل ملامحه تُحكى في سطور وسطور، تركته بهدوءٍ وذهبت لآخذ حمامًا دافئا يمحو آثار ليلة عشق طويلة، وارتديت ثوبًا ثقيلًا وفردت شعري على كتفي وصنعت فنجانًا من القهوة ووضعت قليل من الجبن على قطعة من الخبز، وعُدت إليه وجلست جانبه أتناول الخبز وأحتسي القهوة.

ابتسم عندما شاهدني بجانبه وضمني إليه وقبّلني من جبيني وقال بصوتٍ شبه نائم: «**صباح الياسمين**».

قضينا طوال النهار على بحر الإسكندرية، نجري كما لو أننا لازلنا أطفالًا لم نر للدنيا هموم، وكلما وقعت يحاول أدهم أن يضمني إليه وأفلت منه بذكاء، نسينا أنفسنا لدرجة كبيرة، نسينا قسمتنا في الحياة وأن لكل منّا شخص آخر مُعلق به، نسينا الزمان والمكان وكل البشر، وعيشنا السعادة معًا كما يجب، وعرفنا قيمة «**الوقت**» فاللحظة التي تمر علينا لن تتكرر مُجددا لذا ينبغي أن نحياها وكأنها آخر لحظة في عُمرنا وأتقنا فن العناق كما لو كان كل عناق هو الأخير.

نزلنا البحر الكبير، وأراد أن يُعلمني أن أسبح، ولأول مرة لا أخاف البحر، وكنت جانبه لا أخاف من أي شيء حتى البحر والموت.

انتهى النهار وحان موعد الغروب، الشمس صارت باللون الأحمر، اندهش أدهم للونها وشكل السماء وقال وكنت غير مُنتبهة: إلحقي يا ليلى شوفي شكل السما.

نظرت للسماء واندهشت وكان لها شكل لا يمكننا أن نصفه بل يجعلنا نندهش فقط، وحينها طلب مني أدهم أن التقط له صورة، ليزداد شكل الكون جمالًا في عيني، وطلب مني أن أرافقه بالصورة ولكنني رفضت حتى لا تُسبب لأحدٍ منا مشكلة في يوم ما قادم إن وقعت في يدي أحد، وبداخلي كنت أتمنى أن تجمعني به أي صورة، وسألني عندما كُنت أصوره: نفسك في إيه يا ليلى؟

قلت أثناء التقاطي لصوره: نفسي في بيت صغير يجمعنا ويكون على بحيرة الفيوم، أول مكان جمعنا لوحدنا سوا بعيد عن عيون الناس.. فاكر؟

ـ طبعًا فاكر.. أنا مُمكن أنسى كل حاجة في حياتي.. لكن عمري ما أنسى أي وقت كنا مع بعض فيه، ولا أنسى أي كلمة قولتيها لي يا ليلى..

كان لكلامه حلاوة لا توصف، عوضّني به عن كل لحظة انتظرت بها أن اسمع مثل هذا الكلام من عامر ولم أسمعه، غبي هذا الرجل الذي لم يُسمع زوجته الكلام المعسول فيجعلها تتسوّل لغيره وتسعد عندما ينطق أي أحد كلمة، وإن كانت على سبيل المُجاملة، عوّضني أدهم عن كل لحظة احتجت بها أبي جانبي ولم أجده، عن خمس سنوات من التعاسة عيشتها مع رجلٍ لا يراني أمامه من الأساس وكأنني هواء، كان أدهم هذا الحبيب الذي عوضني فقداني للأب والزوج.

يفشل الرجل في علاقته عندما يجعل امرأته تشعر دائمًا معه بالفراغ، عندما يُشعرها بغيابه وان كان في الواقع جانبها، وألا يلتفت لها على الدوام ويُساندها في عملها وتحقيق طموحها قبل أن تطلب منه بنفسها ويرى نجاحها من نجاحه،

فالرجل الناجح هو من يدرك أن المعاملة فن.

يناديني أدهم بالحبيبة وكان عامر يُناديني «**بأم فريدة**» فلم أسمع منه حتى اسمي إلا قليلا وكأنه يلغي شخصيتي ولم يعلم أن مُجرد سماعي لاسمي بين أهله شيء مُبهج، أعود مع أدهم لطفولتي كبنت الربيع والدنيا مُقبلة أمامي بينما عامر أكون معه كالمُسنة العجوز التي زهدت الحياة والأشياء، يُلاحظ أدهم دائمًا شكل تسريحة شعري وألوان ملابسي وطريقة ضحكتي ومشيتي ويعطيني رأيه، ودائمًا يعجبه ذوقي في الاختيار والتنسيق، أما عامر فكل هذه الأشياء غير مرئية له لا يُبالي بها ولا يُبالي بي، يعاملني أدهم كوردة بحاجة إلى عناية مُستمرة أما عامر فكان لا يُجيد ريّ الورود.

عُدت إلى بيتي الافتراضي مع الحبيب وأول شيء فعله بجانب الباب عندما دخلنا عناقًا طويلًا كاد أن يُكسّر عظامي بين يديه بِلُطفٍ وقال:

ـ بتوحشيني وأنتِ معايا..

فوجدت نفسي أقبلّه بكل حرارة وقوة وكأنني ذات خبرة بفن التقبيل وكنت أجهله لسنواتٍ، وقال جملته المُعتادة التي تُزيدني ثقة وجمالًا:

ـ أنتِ حلوة أوي يا ليلى..

دقت الساعة العاشرة مساء، وأطفأت كل أنوار البيت، إلا نور التلفاز، وشاهدنا معًا فيلم رومانسي وأخبرني أنه الفيلم المُفضل لديه وقد شاهده مرات ومرات، لكنها هذه المرة الأولى التي أشاهد هذا الفيلم، حالة عشق تجمع بين البطل والبطلة للدرجة التي عاشوا بها في بيت واحد دون عقد رسمي، لم تلتفت

البطلة لكلام الناس أو حتى شهرتها كمطربة بقدر إلتفاتها لراحة حبيبها، حتى تغنى لها حبيبها بأصدق كلمات..

«لا أستطيع أن أحيا بدونك، وإذا افترقت عنكِ فإنني سأفترق عن نفسي، لأنكِ وحدك، أنتِ وحدك، في حياتي أنتِ وحدك، أنتِ سلامي وألمي، أنتِ حُبي الوحيد، إنني لا أقوى على الابتعاد ولو للحظة، أعيش كل اليوم لأجلك، كل وقتي لكِ، لا وجود لأي لحظة لي بدونك، اسمك في كل نفس، لأنك وحدك أنتِ وحدك، في حياتي أنتِ وحدك، أحيا لأجلك فقط، اهتمامك الصادق بي، أبعد كل الحزن عن قلبي، معك القدر قد انضم لي.. في حياتي أنتِ وحدك».

وعندما وجد البطل نفسه سببًا في حزن حبيبته على الدوام، أخبرها في صباحه الأخير أنه سيصبح إنسانا آخرَ، ويبدأ حياة جديدة من أجلها وسيتخلص من الإدمان، وسيذهب لصالة الألعاب الرياضية وقال لها:

«جئت هنا حتى أقول لكِ أنه يمكنك البكاء قدر ما تُريدين، ولكن أيام بكاؤك قد ولّت وانتهت، سأبدأ حياة جديدة، تحملتِ مشاكلي وخيانتي وإدماني وعيوبي وعاداتي السيئة، وأنا لم أتمكن من أن أمنحك ما تستحقينه ولكن كل هذا سيتغير الآن».

وركب سيارته ومشى حتى وصل لأحد الجسور فوقف على حافته ورمي نفسه منه مُنتحرًا، فعل بطل الفيلم هذا عندما وجد نفسه ما هو إلا

عائقًا أمام نجاح حبيبته وبذلك منحها بموته حياة جديدة لها مليئة بالنجاح، لكن حبيبته ظلت تتخيله عندما تُغني وعندما هطل عليها المطر رأته يغطيها ويحميها بمعطفه.

انتهى الفيلم لكن دموعي لازلت حاضرة لبعد انتهائه، ومزاجي قد تبدّل تمامًا، وكلما بكيت كلما قبلني أدهم وضمني إليه، وبدأت أخاف من نهايتي معه، ورأيت كل نهايات قصص الحُب حقًا مؤلمة.

لم انس أن أكتب على يديها في أخر كل مرة ألتقي بها كلمات نزار، وأنقل كل ما كتبته بيدها على ورقة بيضاء، وتهديني ورقة أخرى بها ما كتبته لي، وغادرنا البيت فجرًا، وركبنا الأتوبيس المُتجه إلى القاهرة، وجلست ليلى جانب النافذة وكنت جانبها وفي الطريق سقطت رأسي على كتفها، وذهبت في نومٍ عميق، بينما كانت تقرأ كتاب، أهدته إليّ عقب انتهاءها منه وقبل وصولنا بدقائق، وقطعت ورقة فارغة كانت به إلى نصفين، كتبت في احديهما «**لا إله إلا الله**» وأخذتها منها، وأكملت في النص الآخر «**محمد رسول الله**» وأخذتها مني.

وظلت مُمسكة بيدي وكأنها تُخبرني بقبضتها القوية، أنها بدأت وأن تفتقدني الآن وقُبيل وصولنا.

دخلت البيت مع الساعة الثامنة صباحًا وكانت أميرة تنتظرني على غير عادة، ولأول مرة أجدها مُتفرغة من أعمال البيت، ألقيت السلام وتوجهت إلى غُرفتي للنوم ساعة قبل نزولي للمؤسسة، لكنها أوقفتني:

ـ عاوزه أتكلم معاك شوية!!

قلت برتابةٍ: لو محتاجة فلوس لمصاريف البيت هتلاقيها عندك في المحفظة.

قالت مُعترضة: هو كل اللي بينا مصروف بيت؟

أجبتها بجمود: لإنك ما بتطلبيش مني غير كدا، شيفاني مجرد بنك، هات هات هات.. وأنا عليّ التنفيذ!

اشتد النقاش وسألتني: كُنت فين بقالك يومين؟

تراجعت لهدوئي: شغل متابعة تبع المؤسسة..

قالت وكأنها تُكذبني: اتصلت بالمؤسسة وقالوا إنك أخدت أجازة لمدة يومين.

توترت: أنتِ بتراقبيني يا أميرة؟؟

كررت: كنت فين يا أدهم؟؟

ـ روحت إسكندرية.. كنت محتاج أغير جو من ضغط الشُغل.

ـ وأنا وحمزة.. فين من حياتك؟

ـ أنتوا كل حياتي يا أميرة..

انفعلت: كذاااااب.. كُنت مع مين يا أدهم؟

سكت قليلًا وخرجت من الغُرفة وخرجت خلفي وأوقفتني من كتفي وقالت:

ـ أنت حالك متغير.. مش أدهم اللي أعرفه، اللي كان بيقعد معايا دايما ومع ابنه، دايما برا البيت والوقت اللي بتقعده معانا.. بتقعد لوحدك سرحان وبتفكر، رميت كل حِمل البيت عليّا.

وارتفع صوتها أكثر بالشجار: أنا هنا الراجل والست، تغيب وتبات برا وتسافر وترجع وقت ما بتحب ولا كأنك متجوز وفي اتنين مسئولين منك ومحتاجين لك.

ـ أنا مقصرتش معاكم في أي مصاريف يا أميرة.

ـ مش كل حاجة مصاريف يا أدهم!!

انفعلت مثلها: أنتِ السبب في كل دا يا هانم.. خلتيني أحس أن أهميتي كلها في شرا الطلبات، مفيش مرة قربتِ مني فيها إلا لو كُنتِ محتاجة حاجة من وراها، وطول ما أنتِ مش محتاجة مني حاجة ولا بشوف وشك جنبي، كل ما أقرب منك تقوليلي تعبانه يا أدهم.. شغل البيت كان كتير طول اليوم يا أدهم، كل ما أقولك تعالي نخرج سوا.. ترفضي، كل ما آخد رأيك في حاجة تخصني أو تخص شغلي ألاقيكِ نايمة من تعبك في شُغل البيت وكأنه مفيش واحده في الدنيا عندها بيت غيرك!!

ـ كل دا يا أدهم جواك ناحيتي وساكت؟

ـ وكنت هفضل ساكت طول عمري.. أنتِ اللي خرجتيني عن شعوري.

وأشرت على ثيابها المُتسخ: آخر مرة بصيتي لنفسك في المراية كان من امتى؟

نظرت لنفسها: ما بقتش عجباك زي زمان.. مش كدا؟؟

ـ قبل ما تكوني مقصرة معايا كزوجة.. أنتِ كمان مقصرة في حق نفسك!!

قالت وهي تفرك عينيها من البكاء: في واحدة تانية غيري في حياتك يا أدهم.

فشلت في الكذب عليها تلك المرة ووقفت أمامها كالتلميذ الخائب، الذي استهلك كل أكاذيبه أمام مُدرسه، ولم يعد أمامه غير السكوت والتدخل الإلهي لنجدته.

كررت سؤالها: في واحدة غيري في حياتك يا أدهم؟

نظرت إلى الأسفل بعينٍ مكسورة وأعلنت راية الهزيمة سريعًا، فأحضرت أميرة شنطة سفر كبيرة بها مُتعلقاتها ومتعلقات حمزة وكأنها كانت على استعداد للغضب وترك البيت، وسحبت حمزة في يدها وفتحت الباب وقالت بشيء من الكبرياء: أنا هقعد عند خالتي في المنصورة وهستنى ورقة طلاقي منك!!

حاولت أن أمنعها من ترك بيتها أو حتى أن آخذ منها حمزة، لكنها رفضت وارتفع صوت بكاء الولد، عانقته بشدة وقبّلته وقلت لتهدئته:

- روح مع ماما وأنا يومين وآجي أخدك وأجيبلك لعب كتير حلوة.

شدت أميرة الولد وأخذته بكل قوتها ومشيت، وتركت البيت لأول مرة في تاريخ زواجنا، وبعدها عدلت عن قرار ذهابي العمل هذا الصباح، حالتي النفسية كانت تحت الصفر وغير مُهيأة لرؤية أحد، وأخرجت غضبي في السجائر، وفكرت أن أتصل بليلى تهوّن عليّ ما بي ولو قليلًا وفعلت.

- ألو.. الوو ليلى.. الووو.

ظل الهاتف بيننا مفتوحًا، لا أسمع منها شيئًا وكررت الاتصال وحدث نفس الشيء ثانية، تفتح الخط تسمعني ولا أسمعها حتى فقدت الأمل في مُحادثتها وكلمتني نور وطلبت مني ضرورة التواجد بالمؤسسة بسرعةٍ وفي الحال.

ألقى هاتفي على الأرض حتى كُسرت شاشته، وسألني كثيرًا وفي كل مرة يسألني بها ينفعل أكثر ويُخيفني أكثر وأكثر:

ـ مين اللي كان بيكلمك دلوقتي يا ليلى؟ مين أدهم اللي أنتِ مسجله رقمه على موبايلك؟ كان بيكلمك ليييه وعايز منك ايه.. انطقي!

حاولت أن أبدو مُتماسكة أمامه على عكس دقات قلبي السريعة: أنت مجنون يا عامر؟ بتشُك فيّا؟ أدهم دا مُجرد زميلي في الشُغل..

وانهرت في البُكاء: والله دا زميلي في الشغل.. صدقني يا عامر.. صدقني!!

هز رأسه نافيًا قولي وكأنه يُكذبني وخرج دون أن يُخبرني إلى أين ذاهب كما أنه لم يكن قد أخبرني بموعد قدومه هذا الصباح من العريش، فلقد تفاجئت به أمامي في البيت، وبعد أن خرج بدقائق، اتصلت بي نور وطلبت ضرورة الحضور للمؤسسة الآن.

وعلى سُلم المؤسسة صُدمت بأدهم، وكان يبدو غير طبيعيًا وغاضبًا، شيء به غير مفهوم، وقال جملة واحدة:

ـ أميرة سابت البيت..

وقلت له جملة واحدة:

ـ عامر اتخانق معايا..

اجتمعت نور بكل العاملين، واقترحت أن تبني مدرسة صغيرة تحمل اسم المؤسسة، تطمح أن تكون نموذجًا للمدرسة الحلم ويكون مقرها بالفيوم، وتضم

عدد من المدرسين ذو كفاءة وستُجّهزها بأعلى التجهيزات، وأن يتوفر بها مناخ صحي وبيئة آمنة للطالب، وأن تُطبق بها استراتيجيات تعليمية حديثة داخل فصولها، وتكون هذه المدرسة بذرة صغيرة في بداية المشوار وبداية نبتة طيبة ستمتد جذورها لمجموعة مدارس أخرى بكل مُحافظة.

سعدنا جميعًا بهذه الفكرة، مدرسة «**هيا نتعلم**» ستحدث انطلاقة غير عادية وصدى مسموع في الوزارة، لعل باقي المدارس تُقلدها ونصير جميعًا على نفس النهج ونرفع معًا نفس الشعار.. «**الاهتمام بالطالب دائمًا وأبدًا**».

حدثتني سيدة في الهاتف من رقم لا أعرفه وطلبت مُقابلتي، وبعد الاجتماع ذهبت والتقيت بها في المكان الذي ذكرته، وكانت ترتدي عباءة طويلة وحجاب، يبدو عليها التدين حتى في حديثها وطريقة إلقائها السلام وعرّفتني بنفسها:

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. أنا أميرة زوجة أدهم!!

رحبت بها كزوجة زميلي في العمل وقد بدأت أن أخمن السبب وراء طلبها مُقابلتي.

ـ أنا مش هطول عليكِ عشان سايبة ابني عند جارتي، وعشان معطلكيش وآخد من وقتك أكتر من اللازم.

ـ أتفضلي يا أميرة سمعاكِ..

ـ أنا عرفت كل حاجة بينك وبين جوزي من تليفونات ورسايل لحد سفركم إسكندرية مع بعض المرة الأخيرة، وأنا عُمري ما كُنت من النوع اللي بيدور ورا

أدهم، لكن هو اللي أجبرني أفتش وراه، وأنتِ غير ما اتوقعت باين عليكِ بنت ناس ومحترمة.. وأنا هنا بكلمك كواحدة ست، وبسألك تعملي ايه لو اكتشفتِ ان جوزك بيحب عليكِ وبيخونك كمان؟

حاولت انكار ظنونها وتكذيبها لكنها اسكتتني وأكملت بنبرة تهديد:

ـ أنا ممكن أعمل حاجات تضرك على مستوى حياتك الشخصية وفي شغلك كمان، وأنتِ عارفه السمعة دي هي اللي بنعيش بيها حياتنا، لكن أنا مش هعمل كدا وبطلب منك وبترجاكِ تبعدي عن جوزي..

واسترسلت تلك السيدة في البكاء:

ـ أدهم مش جوزي وبس دا أبو ابني وحبيبي وأخويا وأبويا وكل اللي ليّ في الدنيا بعد وفاة أبويا وأمي، أنا مقطوعة من شجرة وأدهم هو كل فروع شجرتي، إبعدي عنه يا ليلى وسيبيه يرجع لي أدهم بتاع زمان.

مزقني حديثها ولم أنطق بكلمة واحدة، فلا كلمة في الكون تمحو ألم هذه السيدة وأوجاعها ولا كل كلمات الاعتذار، وعُدت إلى البيت أفكر في حديث أميرة، أضع نفسي مكانها وأحزن لحالها وأعود لنفس موضعي وأحزن لحالي، وقبل أن يسألني عامر أين كُنت، أخبرته سريعًا: كان عندي شغل في المؤسسة..

ـوقال بِحُرقةٍ وتعصب: وطبعًا قابلتي زميلك أدهم؟

وفجأة ركع عامر على الأرض ولأول مرة أراه يتحدث بدموعه:

ـ أنا عارف إن جوازنا كان جواز تقليدي وعارف كمان إنهم يمكن يكونوا أجبروكِ عليا لكن عُمري ما وصلني إحساس إن جوازنا تم عن طريق الأهل أو عن طريق أخوكِ، بالعكس طول الوقت حاسس أني اتجوزتك بعد قصة حب طويلة، طول الوقت بحسد نفسي عليكِ وأقول إنك كتير عليّا، طول الوقت شايفك أجمل واحدة في الدنيا، طول الوقت حبك بيزيد مش بينقص، ممكن يكون معاكِ حق إني مش بعرف أعبر عن حبي ليكِ بشكل يرضيكي.. لكن دا ما يمنعش إني بحبك بالفعل، يمكن مش عندي مهارة الكلام المعسول زي رجالة كتير أو حتى زي أدهم.. لكن طول الوقت بشقى في الشغل عشانك، يمكن أبان لك مش مهتم بيكِ، لكن ورحمة أبويا أنا كل حاجة بعملها في حياتي بشوفك فيها قصادي، ليلى أنت الست الوحيدة في حياتي..

أثنيت ركبتي وجلست مثله على الأرض وجهي في وجهه، ومسحت دموعه وضممت رأسه نحوي، وسمعتها من عامر لأول مرة: أنا بحبك يا ليلى..

عُدت من اجتماعي بالمؤسسة.. تفاجئت بأميرة وحمزة بالبيت، ولم يُكمل غيابها سوا ساعات قليلة من الصباح لبعد الظهيرة، وعندما شاهدتني أمامها؛ جريت عليّ وعانقتني وقالت:

ـ أنا يمكن أكون قصرت في حقك وحق نفسي قبلك، وشغل البيت وتربية حمزة أخدوني منك لكن ورحمة أبويا وأمي أنا كل دا بعمله عشان راحتك، وكل همي في الدنيا أعملك لُقمة كويسة وارتبلك سريرك وكل حاجة من دي بعملها بحب وإخلاص عشانك.

ـ أنتِ طيبة أوي يا أميرة..

ـ ربنا يجبر بخاطرك يا أدهم وسامحني لو قصرت معاك لكن أنا وعيت على الدنيا لقيت نفسي في مجتمع قروي، ولقيت أمي كانت بتعامل أبويا على نفس الحال، وبطلب منك نبدأ صفحة جديدة مع بعض، أنا ماليش غيرك أنت وحمزة.

قبّلت جبينها وضممت إليّ حمزة وخرجنا نحن الثلاثة لنقضي باقي اليوم في النادي، وقررت مع أميرة أن نكتب صفحة جديدة تبدأ من تغيير أسلوب الحياة النمطي بآخر لا يعرف الملل.

أتى لي اتصالا من رجلٍ لا أعرفه، يطلب به مقابلتي ووصفت له مكان النادي واتفقنا أن نتقابل الآن، تركت أميرة تُلاعب حمزة وذهبت للكافيتريا وانتظرته بها كما أخبرته.

عرّفني بنفسه: عامر عبد الرؤوف.. رجل أعمال وزوج ليلى.

كان الرجل أسمر اللون، له نصيب وافر من الطول والعرض وكأنه لاعب كمال أجسام يبدو عليه معالم الثراء من بذلة قيّمة وعربة فاخرة، وبدأت وأن أخمن السبب وراء طلبه مُقابلتي وبدأنا الحوار بالتعارف الشخصي ثُم أخرج ورقة من جيبه بها خطي وكنت قد كتبتها لها بتوقيعي وتاريخ أول مرة ألتقي بها في مدرستها «**٨/١٩**» عندما سألت الطلاب وقتها ماذا حدث في هذا اليوم؟ وكانت الورقة بها.. «**في مثل هذا اليوم، أدهم قابل ليلى**».

قال عامر: عرفت انك بتحب ليلى، وفي نفس الوقت عرفت غلطي معاها وتقصيري ناحيتها اللي خلاها تحبك هي كمان، وبلوم نفسي على اللي حصل قبلها وقبلك، لأني كنت سبب أساسي فيه..

اندهشت لنبرة صوته الهادئة، فمن يعلم أن زوجته تعرف رجلًا غيره لا بدّ وأن يكون تصرفه حاد على عكس هذا، وتملّكني اليقين انه لا يحبها من الأساس وموجود هنا؛ كي يُدافع عن رجولته فقط لا عن شيء أخر.

أكمل بنفس نبرته الهادئة: أنا عارف انك دلوقتي من جواك مستغرب عشان بكلمك بالبرود دا، وراجل غيري مجرد ما يعرف إن مراته بتفكر بس في غيره مجرد تفكير هيكون رد فعله شديد عليها وعلى اللي بتفكر فيه، لكن أنا بحاول أتمالك أعصابي لسبب واحد..

استعجلت رده: سبب ايه اللي مخليك بالبرود دا غير انك أصلا مش بتحبها؟

طلب عامر من عامل البوفيه كوب من الليمون البارد وضرب الطاولة بيده وضغط على أسنانه وأخذ نفسًا عميقًا وسكت لدقيقتين حتى يعود لاتزانه وثباته وقال: ليلى مريضة بالقلب..

وقع كلامه كجبل على قلبي، وتوترت وظهر توتري عندما كنت أرشف قهوتي، اهتز الفنجان بيدي، وتذكرت تلك الأعراض التي ظهرت عليها أكثر من مرة عندما كنت معها وإحساسها الزائد بالبرد في وقت الصيف وشحوب أطرافها وزرقة وجهها وكأن الدم قد هرب من جسدها، ربطت كل هذا بقوله وعلمت انه صادق لا يكذب، وقال متوسلًا: أنا هنا بكلمك مش كزوج، أنا بكلمك كإنسان، ابعد عنها وخليها تعيش الباقي من عُمرها معايا.

شرب كوب الليمون على مرة واحدة وكأنه يستدعي بالليمون هدوئه وقال بنبرة بها شيء من التهديد: مش هسمح إن ليلى تموت في حُضن حد غيري.

كان من الصعب عليّ أن أتخلى عن ليلى بأي حال من الأحوال، وازداد الأمر صعوبة عندما علمت بحقيقة مرضها، وتجرعت مرارة وحدتي دونها بخيالي قبل أن يحدث هذا بالفعل، ورفض عقلي الباطن حقيقة مرضها وفراقها الإلهي، وعاتبت على قلبها.. كيف له أن يمرض وأنا به؟ ولقاءي بعامر لم يكن إلا محاولة فاشلة منه لحفاظه على ليلى ولن يُبعدني عنها ولم يزيدني لها إلا حُبًا.

لاحظت اهتمام أميرة بنفسها وقد أعجبني في الحقيقة الشكل الجديد الذي اتبعته في ملابسها وخلعها للعباءة السوداء التي كانت ترتديها دائمًا في خروجاتها كالمرأة العجوز لكنها لم تخلع الحجاب وان كانت قد أبدلته بآخر

ذا ألوان مُبهجة تُناسب سنها وباقي ملابسها وفي البيت قد تغير تماما حالها وهيئتها.

مررت يدي على شعرها وقلت: جميلة تسريحة شعرك دي.

مدحت تسريحتها الجديدة، فكنت بالرجل الذي لا يغفل حق زوجته بالكلام الطيب، فهذا له تأثير عظيم على المرأة، يا ليت كل رجل بالعالم يُدرك هذا، وكلمة صغيرة قد لا تتخطى الثواني في النطق بها قد تُسعدها أيام. وإن كانت مُجاملة.

فرحت أميرة وقالت: أنت السبب في دا كله، نبهتني بنفسي قبل ما يجري بيّا العُمر، والتغيير كمان مطلوب يا حبيبي من وقت للتاني..

قلت موافقًا: طبعًا التغيير مطلوب..

قالت بضحكٍ: لكن أكيد مش هتغيرني أنا؟؟

قلت ببسمة هادئة: أكيد!

فتحت أميرة حقيبتها وأخرجت فاتورة صغيرة وقالت بدعابةٍ: مصرفتش كتير..

نظرت للرقم في الفاتورة وصدمني المبلغ الكبير وسألتها:

ـ منين جبتي الفلوس اللي دفعتيها دي كُلها يا أميرة؟

أجابت: واحدة صاحبتي أصرت تدفعهم لي على سبيل الهدية، حتى كل حاجة جبتها كانت من اختياراتها وذوقها.

ـ ذوقها حلو فعلًا..

قالت أميرة: ما هي مش غريبة عليك.. دا ذوق ليلى!!

اندهشت: وليلى بقت خلاص صاحبتك؟

قالت بذكاءٍ: لازم تكون صاحبتي وأكسبها، أحسن ما تكون عدوتي وأخسرك.

علمت أن أميرة اخترعت لعبة من ذكائها، فكيد المرأة عظيم، لا تتوقع ردة فعلها من أجل الحفاظ على حُبها فقط نتفاجئ نحن الرجال من طريقة تفكيرهن، وعلمت أن أميرة قد بدأت في شن حرب باردة على ليلى، طويلة الأمد لكن نتيجتها مضمونة بالنسبة لها.

أعطيت لأميرة كل المبلغ الذي دفعته ليلى وطلبت بشدة أن تعيده لصاحبته ولا تفعل هذا أبدًا مرة ثانية، فأنا غير مقصر معها ماديًا، وفي الوقت نفسه تعجبت لأمر ليلى، تُعين أميرة في جعلها جميلة في عيني، ولم تعلم أن الجمال لدي له معايير أخرى كُلها منها وإليها، وأصبحت لا أرى غيرها، فعين العاشق صادقة على الدوام وإن كذبوها الآخرون وكاذبة على الدوام وإن صدقوها الآخرون، ومرآة الحب مُبصرة لمن يعشق حبيبه بكل ما به وما عليه.

أصبحت حياتي مع عامر بها سلام نفسي غير عادي بلا مشاكل أو أية مضايقات، ربما ذاك هو الهدوء الذي يسبق العاصفة، ينفذ قبل أن أطلب، يُجيب قبل أن أسأل، طوال اليوم جانبي وبصحبتي أينما ذهبت، حتى عمله بالعريش كلف كل مهامه لموسى، وبدأ في البحث عن فكرة مشروع صغير بالقاهرة وخصص كل وقته لجمع سيولة تكفيه حتى لا يتركني أبدًا.

تمنيت يومًا من عامر أن يقترب، وعندما حدث ما تمنيت شعرت بالاختناق، وكأنني تحت الماء بلا هواء أو أكسجين، يلاحقني دائمًا فلا يترك لي فرصة حتى للانفراد مع نفسي وذكرياتي، وان اختفيت لحظة واحدة عن عينيه يسألني ألف سؤال وسؤال، وفي يوم أخبرني أن والدته قد هبط ضغطها ووقعت، وطلب مني أن يُحضرها من العريش للعيش معنا، فلا أحد يرعاها هُناك أو يهتم لأمرها.

أوصلني بيت أمي قبل أن يُسافر وقبّل جبيني ووعدني أن يعود سريعًا، أخذت أمي فريدة مني وضمتها بشدة فلقد كانت تفتقدها الفترة الماضية تلك التي كنت بها مع عامر وكانت هذه أطول فترة أقضيها في بيتي، ودخلت غرفة أبي ولم أجده وجلست على فراشه أنتظر قدومه حتى نمت عليه.

وتذكرت حينها أبي عندما ذهبت لزيارة قبر جدتي معه وطلب مني في طريقنا طلبًا وحيدًا وأكد عليه: خلي بالك من نفسك يا ليلى وما تلعبيش مع حسين أبدًا.

وبعد عودتنا نام أبي على فراشه هذا الذي أنا عليه الآن، ووضع يده على قلبه وكان يلتقط أنفاسه بصعوبة وطلب من أمي كوبًا من الماء، وبعد أن أحضرت

الماء وجدته لا ينطق، لا يتحرك.. عيناه ثابتة، على جبينه بعض قطرات العرق.. نادت أمي بصوتٍ مُتقطع ومُرتفع:

ـ حاافظ.. حاااافظ!!

لم يرد أبي عليها، فحضر الأهل جميعهم والبيت صار مُزدحمًا ولم أهتم حينها بما يحدث، وانتهزت فرصة نومه كما اعتقدت وذهبت ليُعلمني حسين الشطرنج بالخارج دون علم أبي وكُنت لا أجيد هذه اللعبة حتى حسين فشل في تعليمي لها، وعندما عُدت للبيت، وجدته قد خلى من زحام الناس، ودخلت غُرفة حافظ ولم أجده، وسألت أمي عن أبي، فأخبرتني كذبًا بدموعها أنه خرج يشتري شيء ما، وعلمت حينها أنه لا يُريد رؤيتي لأنني خالفت كلامه ولعبت خارج البيت مع حسين وقد حذرني قبل ذلك من اللعب أو الحديث معه.

عُدت من شرودي بالماضي عند اتصال أدهم الغير مُتوقع، وطلب مُقابلتي في صباح اليوم التالي بشكل ضروري بلا تأخير أو اعتذار، وبدأ اليوم يظهر جميلًا، فسماعي لصوت أدهم يخلق مني إنسانة جديدة غير مكتئبة وكُلها حياة.

أغلقت الهاتف في وجهه عندما استدرت خلفي ورأيتها تقف وتسمع، وسألتني:

ـ مين كان بيكلمك يا ليلى ورايحة فين بُكرة الصُبح.

كذبت وقلت بتوترٍ: دي نور مُديرتي في الشغل يا ماما، ما أنتِ عارفاها يا ست الكل.. هتاخدني معاها نشوف موقع المدرسة الجديدة بُكرة.

قالت: ما تخرجيش من غير إذن جوزك.. أنت هنا أمانة عندي لحد ما يرجع.

انتفض كل ما بداخلي عندما خطر ببالي أن أمي قد تكون على علم بتفاصيل علاقتي بأدهم وتركت غرفة أبي وتركتها.

رفعت كل أثاث البيت، أنظف وأغسل السجاد والمفروشات والحوائط وأزيل الأتربة وألمع الزجاج، فالبيت له مدة لم يُنظف إلا بشكل خارجي فقط، وكي أبعد نفسي عن نظرات أمي الغير مُطمئنة بالمرة.

ومن وقت لآخر أشعر بزيادة ضربات قلبي وكأنني سيُغمى عليّا، أقاوم وأكمل كل ما أفعله، وأقنع نفسي أن تعبي هذا لأنني لم أفعل مثل هذا المجهود من مدة، وهذا إحساس طبيعي، ليس له علاقة بحالة قلبي.

كانت أمي تخاف عليّ لكنني أطمأنها باستمرار وأبدو أمامها بحالة جيدة وكأن لا شيء بي، وبعد أن انتهيت من كُل ما بدأته، دخلت غرفتي للراحة والنوم، نظرت لصورة أبي المُعلقة أمامي على الحائط وحضرني ذاك الموقف عندما كانت هذه الصورة في الصالة وكان عليها شريط أسود عريض، لكني رفعت عنها هذا الشريط وأخذتها معي غُرفتي.

تقابلنا في المعاد والمكان المُحددين، وركبت جانبه بسيارته، وساق بسرعة كبيرة حتى دخلنا بوابة الفيوم الكبيرة وبعدها توقف قليلًا، ووضع على عيني

شريطًا عريض كي يحجب رؤيتي ووضع عليه نظارتي الشمسية كي لا يلاحظ أحد بالخارج أني مُغمضة العين، وكنت غير قلقة بالمرة، فمع أدهم يكون إحساسي الكامل بالأمان وان كنت حتى مُغمضة العينين، فقلبي معه مُبصر طالما يدي في يده تطمئنني باستمرار انه هنا جانبي ولن يتركني أبدًا.

وبعد نصف ساعة تقريبًا، توقف ثانية بسيارته، ونزل منها وفتح لي بابها الذي بجانبي وساعدني على النزول، وسار خلفي ويداه الاثنين على كتفي يقودني ويوجهني، وكنت لا أعرف أي تفاصيل عن المكان الذي وصلنا إليه.

سمعت صوت مفاتيح بيديه، استخدمها كي يفتح بابًا ما ودخلت معه، وحينها رفع أدهم عن عيني الشريط وعادت رؤيتي مُجددًا.

قال برقة: كل سنة وأنتِ الحبيبة يا ليلى.

نظرت إليه بدهشة: إحنا فين يا حبيب؟

مسك يدي وتجولت معه البيت الصغير المكون من طابق واحد بغرفتين وصالة ومطبخ وحمام، ومُعطر كله برائحة الفُل، وكان معه مُفتاحين، مدّ لي أحدهم، وقال بعينٍ لامعة: فاكرة أمنيتك بأنه يجمعنا بيت صغير على بحيرة الفيوم؟

لمعت عيني مثله وأدمعت فرحًا: دي كانت أمنية شبه مستحيلة..

قال: البيت الصغير إحنا فيه، والبحيرة قصادنا آهي، وأنا جنبك فين بقى المُستحيل؟ معايا يا حبيبة مفيش حاجة اسمها مُستحيل.. الحُب اللي بيننا ما يعرفش المستحيل.. إتمني هتلاقي!!

سألته: لسه بتحبني زي أول مرة اتقابلنا فيها؟

أجابني بسؤالٍ واحد علّم به على قلبي: وهل ينتزعُ القلبُ من القلبِ؟

تجولنا المكان من الخارج، نسير بين البط الأبيض، لم أفكر في شيء غيره ولم يُفكر في شيء غيري، تأتيني السعادة من حيث لا أحتسب، وكأنني عالقة في السماء، فيرقص قلبي المريض، أتنهد ثُم أقاوم..

أقاوم رغبة البشر في مُفارقتنا، وأقاوم رغبة القدر في نزعه من حياتي وإبقاء آخر له سلطة رسمية، أقاوم مخالب الزمان الغير رحيمة وضحكات الأيام الخبيثة، وفي الوقت نفسه.. أخشى أن أنهار ولا يعد لي القدرة على المقاومة بضراوةٍ، لكنني لازلت أقاوم!!

كتبت أمنيتي على ورقة شجرة وكتب أمنيته على ورقة أخرى ووضعناهم داخل علبة صغيرة وألقينا بهم في البُحيرة الكبيرة، فلا أعرف ما تمنى ولا الحبيب يعرف ما تمنيت، ثُم وضعنا شمعة واحدة في مُنتصف «**التورتة**» لنحتفل معًا بمرور العام الأول على مولد الحب في قلوبنا وعليها التاريخ نفسه «**٨/١٩**».

وتغنى الحبيب بأغنيتنا بصوتٍ هادئ ونبرة أقرب للهمس وهو يتطلع لعيني «**في جوه قلبي حاجة مستخبية.. كانت حياتي ناقصة جيت تكملها.. فرحة لُقايا بيك بتبقى زي العيد**»، وأخرجت حينها من حقيبتي تلك الميدالية الفضية التي سبق وان اشتريتها من العريش وأعطيتها له، أعجبه بساطتها وأعجبه أكثر انقسامها إلى جزأين، أخذ واحدة منهما ووضعها بها مفتاح سيارته وأعطى لي

الثانية لترافق يدي طوال حياتي ووضعت بها مُفتاح شقتي مع عامر، وترجمنا مشاعرنا إلى صورة ملموسة ورأينا حولنا جميع الأشياء تتحرك، ورأيت في نفسي امرأة كان الحظ حليفها للدرجة التي عاشت أكثر بكثير من عُمرها، فإن مت الآن.. سأرحب بالموت، فالعمر ليس مجرد تعداد من أيام وشهور وسنوات، العمر الحقيقي يُحسب بعدد اللحظات السعيدة التي عشناها، تلك التي كنت بها جانبه وكان جانبي.

شعرت بألم في كتفي الأيسر وكأن به سكين حاد يخترقه، فتحت حقيبتي بسرعة وأخذت منها واحدة من الأقراص التي كانت معي، ولأول مرة آخذ الدواء عن قناعة وبنفسي دون إلحاح أمي وكأنني قد علمت الآن أهمية الحياة، وكنت في السابق غير مُبالية لها، وكان يتملكني أحساسين على عكس بعضهما، الأول يرحب بالموت ما دُمت بجانب الحبيب، والثاني يرجو الحياة خوفًا على الحبيب بعد بُعدي، وقلت: عارف يا أدهم.. أنا مدينة لك بكل لحظة حلوة عيشتها معاك، كل لحظة عيشتها جنبك بعمر كامل.. شوف كام عُمر عيشته؟

قال بألم وكأنه قد علم بحقيقة مرضي: الفكرة مش إننا عيشنا قد ايه يا ليلى، الفكرة هي حسينا فيها كام مرة إننا عايشين. وغيّر من نبرة صوته وكأنه لازال هناك أمل في الأيام وقال بتفائل: ولسه هنعيش مع بعض أجمل أيام..

قلت بأصدق ما نطقت: بحبك يا حبيب..

وقال بأصدق ما نطق: بحبك يا حبيبة..

بِت أحلم الآن ألا تنقضي ليلتنا، وألا يهرب الوقت بعيدًا ويفلت منّا، فماذا لو علم الوقت بأنه أكبر عدو لنا ويأخذ هُدنة عن الحركة ويتوقف في سلام؟

وماذا لو ظل القمر حاضرًا أمامنا دون نهار؟ وماذا لو بدّلنا مقاعدنا الحقيقية وجلست مكان أميرة وجلس الحبيب مكان عامر؟؟ ماذا وماذا.. لكن الواقع لا يعرف كلمة «**لو**» ويعرف فقط استحالة حدوث ما نتمنى، ويسعى لإيلامنا بأشد درجات القسوة، يمنحنا طعم الحياة الحلو وسرعان ما نتجرعه مُرًا، لو كنا نسير على خط واحد ما كُنا أدركنا الفارق بين الحلو والمر وما كنا تألمنا، وقال أدهم بعد لحظات من صمت العناق:

ـ عارفه إيه مُشكلتنا يا ليلى؟

ـ إيه يا حبيب؟

ـ إننا عايشين مع ناس أكبر عيوبهم أنهم خاليين من العيوب..

فكرت في كلامه عن أميرة وعامر، تخطوا بالفعل عيوبهم ونقاط اختلافهم معنا إلى الحد الذي جعلنا في موضع صعب للغاية، غيّروا من أنفسهم لأجلنا، لكنهم تأخروا في التغيير، بعدما تقابلنا ووقع الحُب بقلوبنا، نعم تأخروا.. تأخروا كثيرًا!!

مُجتمعنا يرفض انفصال الزوجين إلا بسبب واضح وظاهر، ويغفلون عن أهم الأسباب التي تكمن بالداخل من مشاعر وراحة نفسية وأشياء لا علاقة لها بالماديات، ومن ينطق بمثل هذه الأسباب ينهالون عليه بالشتائم والسباب وكأنه بلا أخلاق أو حياء.. وعليه أن يسكت ويستمر ويربي أولاده.

كُنا على مشارف الوصول للقاهرة الكُبرى، لمحت على الطريق محل صغير يفوح منه رائحة الفلافل الشهية، نظرت ناحيتها وقلت: إيه رأيك يا ليلى؟؟

قالت كالأطفال بصوتٍ رفيع: اللـه.. أنا بحبها أووي!!

ركنت السيارة جانبًا واشتريت فطارًا من الفلافل الساخنة، أطعمتها في فمها كأنها ابنتي وأطعمتني في فمي كأني ابنها وأكملنا بعدها الطريق..

وضعت يدها اليُسرى على رجلي بالقرب من موضع ركبتي، ووضعت يدي اليُمنى على يدها هذه، وسرى الدم في عروق يدانا يتدفق من مجرد لمسة بسيطة بإحساسٍ قوي، وأرادت ليلى أن تُخلد ذاك المشهد وذكرى اللمسة، والتقطت لأيدينا فقط.. صورة بهاتفها، ونظرت لتفاصيل اللمسة وقالت:

ـ الصورة بتنطق.. دي مش مجرد لمسة إيد.. دا حضن كامل يا حبيب!!

وأرسلت الصورة من هاتفها لهاتفي، لتظل دائمًا معي، صورة تنبض!!

أسندت ليلى رأسها على مسند مقعد العربة، واستسلمت لمعالم الطريق، شردت بعيدًا، تُفكر فيما أفكر به، في كل ما كان بيننا وما سيكون، في كتابتي لها على خطوط يدها، في البحيرة والنيل والليل، وبيتنا الجديد الصغير، ولن نغفل عن التفكير في المواجهة القادمة مع الأيام، ونتساءل هل سننتصر ونكمل معًا، أم سنهزم في الجولات القادمة ونعلن الفراق..؟

أوصلتها لأقرب محطة مترو كما طلبت وذهبت لبيت صديقي محمد، كي أخبره عن فرصة عمل جديدة قد وجدتها له معي في المؤسسة.

لطالما كان محمد يفكر دائمًا في أحواله ووضعه الاجتماعي والمادي، ولا يرضيه أي شيء، أيقنت أنه سيسعد بالعمل الجديد، لكن قناعاته كلها كانت في السفر، ربما يجد في بلد آخر وضعه كإنسان في المرتبة الأولى وكمعلم في المرتبة الثانية.

فشلت في إقناع محمد بالبقاء وفشلت زوجته معي، وطلب من زوجته أن تتركنا على انفراد.. وبدأ حديثه بسؤاله عن ليلى: إيه الجديد في موضوعكم؟

قلت: كل مرة بشوفها بحبها زي أول مرة، ليلى مش حبيبتي وبس، دي مخلوقة من الضلع اللي جنب قلبي، أنا خايف عليها أوي يا محمد.

ـ لو خايف عليها سيبها؟؟؟

ـ مش هتستحمل بُعدي عنها.

ـ قربك ليها مش في مصلحتها..

ـ معاك حق.. لو كانت مش مرتاحة في حياتها مرة مع عامر، وجودي هيخليها مش مرتاحة ألف مرة.. أنا تعبااان أوي يا محمد وتايه أووي أوي، معرفش ليه أنا متعلق بيها كدا، بحاول أبعد وأهرب لكن بسرعة برجع، أنا خايف قربي منها يضيّع منها بنتها، أنا أب قبل ما أكون حبيب وعارف معنى كل دا وشايل همها وهم مراتي وابني لو قصرت معاهم... أدعيلي يا محمد، ربنا يدبرها من عنده!!

ـ أنت صعبان عليا يا أدهم، حطيت نفسك في الموقف دا كان المفروض من البداية ما تجريش ورا مشاعرك، كان هيبقى أسهل بكتير في الأول، وصّلت نفسك تكون ضحية لصراع صعب بين قلبك وعقلك.. فكرت في لحظة حلوة تعيشها ولا فكرت في النتيجة، بصيت تحت رجليك ونسيت بُكرة، أرجع وحكّم عقلك يا صاحبي وخلي بالك عُمر الحياة ما بتوقف عند حد وحياتك مش هتوقف عند ليلى..

قد يكون صديقي لديه الحق في كل ما قال، لكنه أخطأ في شيء واحد، عندما قال أن الحياة لا تقف عند أحدٍ، فهذا قول من لا يعرف الحب أبدًا، ليته يعلم أن حياتي بدأت بها ووقفت عندها.

يدهشني هذا الحب كثيرًا، لا يقل مع الأيام بل يزيد، لا أفتر منه بل يتجدد، أحبها اليوم أكثر من الأمس، وأحبها الغد أكثر من اليوم، وأحبها في كل وقت أكثر من أي وقت، فالحب يعني «**ليلى**».

بقيت طوال اليوم مع محمد، أساعده في تجهيز حقيبة سفره، أخفي دموعي عنه، فراقه ليس بالأمر الهيّن عليّ، هذا الصديق الوفي، الذي تحملني في أوقات غضبي وقاسمني أوقات فرحي، عيشنا معا ذكريات طفولة لا تُنسى، أجده عندما احتاج إليه، لا أنسى مرة عندما ضاق بي الحال لدرجة إنني لم أجد ثمن بذلة فرحي، فاشتراها لي محمد ولم يأخذ ثمنها وأخبرني أنها هدية، والهدية لا تُرد، نعم محمد كان صديقي في كل الأوقات وسيظل..

أبكاني مشهد وداعه لزوجته وابنه، شاب مثله أراد أن يسلك طريق الغربة والشقاء، ذاك الطريق المليء بالأشواك، بلا أنيس أو صديق أو زوجة، يُضيع أجمل سنوات عُمره بعيدًا، يمنح تعبه ومجهوده لمن لأطفال لا يحملون جنسية بلده، من أجل لُقمة العيش، من أجل أن يشتري سيارة تُشعره بآدميته وسط من يُقدّرون الرجال بالمظهر، من أجل أن يشتري بيتًا عوضًا عن بيته الذي له مُدة معينة للسُكنى به ومع تجديد كل مُدة يزيد الإيجار.. إما أن يقبل بدفع الزيادة أو يُطرد في الشارع يبحث عن بيت آخر وتتكرر المُعاناة ذاتها، من أجل تأمين مُستقبل أبنائه، من أجل أن يتمكن من دفع فواتير الغاز والماء والكهرباء في موعدهم الشهري من غير سلف من أحد الجيران، من أجل أن يفي باحتياجات أبنائه المدرسية، فلا ذنب لهم أن أبيهم عاجز ماديًا أو غير قادر، من أجل أن يدفع ما يشتريه على مرة واحدة دون أقساط تقسم الظهر، من أجل أن يعود ويحيا كمواطن معه ما يكفيه من أموال؛ تُجبر الآخرون على احترامه، فنحن في مُجتمع لا يُقدّر المُعلم بقدر ما يُقدّر لاعب الكرة.

أُذيع بمُكبر الصوت بالمطار عن قرب قدوم الطائرة، فانخلع قلبي من مكانه، وكان يجب عليّ أن أودعه أنا الأخير، تعانقنا بكل ما أوتينا من أخوة وصداقة أعوام، رأيت في عينيه دمعة عصيّة لا تريد السقوط على وطن قادر على الاستغناء عن أبنائه بكل سهولة، على عُمرٍ من شقاءٍ قد ولى وعُمر من شقاءٍ آخر قادم.

قال وكأنه بدأ وان يشعر بي لحظة الوداع: أوعى يا أدهم تسيب ليلى لأنك بتحبها حقيقي، وأوعى تظلم معاك أميرة لأنها ماتستاهلش دا.

أخيرًا.. وجدت أحدًا على الأرضِ يأمرني بأن لا أترك ليلى، ولكن كيف لي أن احل ذاك اللُغز العصيّ والمعادلة التي يصعب فهمها، بألا أترك ليلى ولا أظلم أميرة؟ كيف لي أن أوفق بين القلب والعقل معًا؟ كيف **«لي»** أن أظل **«حبيب»** ؟!

ركبت المترو في اتجاه جامعة القاهرة للبت في أمر سفري لمنحة دراسية تُنظمها الجامعة من وقت لآخر للحاصلين على رسالة الماجستير ويطمحون بالحصول على درجة الدكتوراه من الخارج، وأخبرني الدكتور هاشم بنفسه هاتفيًا أول أمس أن اسمي ضمن من تم ترشيحهم، فرحت لأنه أخيرًا حلم السفر لأوشك أن يتحقق، لكنه أتى في غير وقته، بالأمس كانت لدي الرغبة الكاملة لهذا، ربما أجد في قسوة الغُربة الحقيقية ما ينسيني إحساس الغربة التي أحيا بها مع عامر وتكون هذه الفائدة الثامنة لها، لكن قد تبدّل الحال اليوم، فصار هُناك أدهم الذي علمني أن الرزق قد لا يكون في صورة أشياء ملموسة بل قد يكون الرزق في شكل قلب يحبك ويخاف عليك، وإني رُزقت حُب أدهم.

وقُمت بالرد على الدكتور هاشم «**بالرفض**» رغم انه استنفذ كل جلسته معي في إقناعي بالمنحة والسفر، وهذه فرصة قد لا تتكرر ثانية، وآخر ما قال:

ـ ما تستعجليش الرد.. معاكِ فرصة كمان شهرين.

وصلت بيت أمي بعد غياب دام ليوم ونصف، وطوال الطريق أفكر في عُذر مناسب لغيابي، ولن أجد إلا إخبارها بأنني كنت في متابعة خارج القاهرة تخص عملي، عشت مشهد المواجهة التي ستتم بعد قليل في خيالي، وحفظت المبررات اللازمة بداخلي لخوض المعركة بنجاح، حتى أتقنت دور المُتعبة المُنهكة في العمل طوال يوم ونصف، كي لا تكذّبني أمي أو تشُك بي..

لكنه عامر من فتح الباب وليست أمي، انخلعت كل أطرافي من مكانها، وصار الأمر أكثر صعوبة والمواجهة أكثر ضراوة، سألني ومن بين عينيه نارًا:

ـ كُنتِ بايته فين يا ليلى؟

هرب الكلام بعيدًا وكل ما حفظته ضاع من الخوف والفزع، فكلما حاولت النطق سكتت، وكلما ابتعدت عيني عن مواجهته.. اقترب بجسده كله حتى كاد أن يلتصق بجسدي، وأصبحت كُل المبررات التي ادخرتها لتلك اللحظة غير مقنعة.

ارتفع صوت عامر غضبًا: اعترفي يا ليلى.. كُنتِ فين؟

وقفت كالصنم.. ثابتة لا أتحرك، مُستسلمة لكل ما سوف يفعله بي حتى وان قتلني بثورة غضبه، وشرد دمي تمامًا، وكأنها لحظة الاحتضار أو الموت بعينيه.

وبدأ في ترجمة غضبه إلى ضرب، صفعني على وجهي بكل ما أوتي من قوة، لكنني لازلت ثابتة في مكاني بلا أية حركة، وأبت دموعي أن تحضُرني وتسقط لتُلين قلبه ولو قليلًا، صفعني ثانية بلا أدنى رحمة وكان الشك قد ملأ كل فكره وحوّله إلى إنسان لا أعرفه، أو مخلوق آخر له أنياب وكأنني لم أعش معه أعوام أو حتى ساعات، فما أصعب شك الرجل، وغيرته نار لا تنطفئ أبدًا!

حاولت أمي وأن تجد أي حجة تنطق بها ويصدقها عامر، فقالت:

ـ كانت عند صاحبتها يا ابني.. ولما أتأخرت عندها قُلتلها تبات!

لم يصدقها بل صدق ظنونه التي ملأت رأسه، فوقفت أمي بيننا تمنعه عني، وكنت في الواقع قد فقدت القدرة على الإحساس بأي شيء ذاك الوقت، وكأن شكل أصابعه على وجهي مُجرد رسمة خالية من الألم.

شعرت بدوار مفاجئ اجتاح كل جسدي من أعلى لأسفل وكأن هناك شيء ما قادم من الأرض خفيّ يسحبني لأسقط.. واستجبت له وسقطت!!

مرر يده على شعري وقال «**ما تخافيش يا حبيبة أنا هنا جنبك**» وأخرجني من هذا المكان، والغريب في الأمر أن عامر وأمي يروننني أسير معه بلا أي اعتراض، وذهبنا معًا لنقف على النيل كأول مرة تقابلنا بها، وفتح يدي وعد على كل إصبع كلمة أحبك، يخبرني أولًا: أنتِ حبيبتي ويقترب، وثانيًا: أنتِ حبيبتي ويقترب، وثالثًا: أنتِ حبيبتي ويقترب.. ووصل لعاشرًا: أنتِ حبيبتي.. واختفى تمامًا وتركني وحيدة على نيل لا يهتم بمن يقف عليه وحيدًا بلا حبيب..

فتحت عيني ووجدتني نائمة على فراشي، وأمي من كانت تُمرر يدها على شعري لا أحد آخر وكأنني كنت أحلم، سألتها: فين بنتي يا أمي؟

قالت: عامر أخد البنت ورجع العريش..

أنهرت: أزاي تسمحي له ياخدها؟ أزاي يا أمي؟

قالت بقلق: بنتك مع أبوها.. متخافيش عليها، طمنيني عليكِ يا ليلى؟

واجهتها بحقيقتي بنبرةٍ من الندم والألم: حاسه إني مخلوقة وحشة، خذلتك في تربيتي، جرحت عامر وكان كل همي نفسي، دورت على سعادة قلبي ونسيت حقيقتي، نسيت إني زوجة وأم، أنا وحشه يا أمي.. سامحوني!!

قالت بشدة: مفيش حد وحش يقول على نفسه كدا، بس تأكدي إن اعترافك بغلطك أول الطريق الصح، بأيديكِ تفوقي قبل ما يفوت الأوان وتلاقي

نفسك من غير عامر أو بنتك.. أوعي تفتكري إني قاعدة في البيت دا ومش فاهمة حاجة، أنا عارفه كُل حاجة يا بنتي، فكرتي لحظة واحدة حياتك هتكون شكلها إيه من غير فريدة، فكرتي في لحظة واحد لما تطلقي، الناس هتقول عليكِ إيه؟ فكرتي بعد ما تطلقي، هيكون إيه موقف أدهم لأنه مُستحيل يسيب بيته ومراته، وحتى لو اختارك تكوني زوجة تانية، فكرتي هتكون إيه شكل حياتك وأنتِ زوجة تانية؟ وبالنسبة لعامر هيتجوز على طول مش هيعيش حياته كدا من بعدك، مفيش راجل يقدر يعيش من غير ست في حياته، وبنتك تتربى على إيد واحدة غيرك، يا بنتي فكري بقى بعقلك وفي عواقب تصرفاتك وكفاية اللي حصل يا ليلى، أبوكِ لو كان عايش، كان هيبقى له تصرف تاني معاكِ..

اعترضت كلامها: يعني ايه أبويا لو كان عايش.. تقصدي ايه؟ هو فين بابا؟

صارحتني للمرة الأولى: أبوكِ مات.. مات يا ليلى من سنين وسنين، لكن أنتِ اللي رافضة تصدقي الحقيقة دي وطول الوقت بتسألينى عنه وأنا بسكت عشان مصدمكيش، طول الوقت بتشوفيه قصادك في البيت قاعد معانا أو في أوضته، لكن هو مش هنا يا ليلى ولا هيكون هنا أبدًا لإنه مااات من سنين يا بنتي..

حاولت أن استجمع بقايا آخر مشهد رأيته به عندما تركته نائمًا:

ـ هو زعلان مني عشان خرجت ولعبت مع حسين من وراه..

ـ أبوكِ مات يا ليلى..

أنهرت في البكاء وكأن موته حدث الآن: أنا عارفه إنه مات.. مات من غير ما أودعه.. من غير ما ياخدني في حضنه.. مات ما غير ما يطبطب عليا..

مات من غير ما أشوف نظرة رضا من عينه ليّ، مات من غير ما أسمع منه كلمة تفرحني.. مات من غير ما أحس أني بنته وانه أبويا.. لكن طول الوقت شايفاه قصادي ورافضه الحقيقة دي على أمل إنه ياخدني في حضنه ولو مرة واحدة في حياتي.. أنتِ عارفه يا أمي؟ أبويا السبب في اللي بيحصل لي.. لو كان خدني في حضنه زمان، ما كنتش احتجت حضن أي راجل غيره!

اقتربت أمي كثيرًا مني وأخذتني في حُضنها وكأنها تخبرني بذلك أنها الأم والأب، وفتحت سراديب العزاء داخلي، ولأول مرة أواجه بها حقيقة أن حضن أبي بات بالأمر المستحيل.

لم تكن المرة الأولى التي تجرعت بها ألم الصفعة من عامر، بل كانت المرة الثانية، فالصفعات الأولى كانت من أبي، عندما نهاني مرة من اللعب مع حسين أو الحديث معه لسبب ما أجهله ومات ودفن سر كُرهه لحسين داخله، لم أنس أبدًا هذا المشهد القائم أمامي كلما استحضرت لحظات طفولتي بين حين وآخر، حينما اعتزل حسين اللعب نهائيًا من غيري، واعتزلت حينها طفولتي، لم أنس ذاك المشهد الذي حلقت به وراء عصفوري حتى فشلت باللحاق به وعندما ضللت الطريق وجدت حسين أمامي وبيده العصفور، فكان دائمًا مُنقذي ولو كان ظل بمصر ولم يُسافر مع أبيه.. ربما كانت أشياء كثيرة تغيرت في حياتي بأكملها، لكنني لازلت مُحتفظة بملامحه السمراء الهادئة داخل سرداب الذكريات والطفولة، ومن وقت لآخر أخمن ما عليه من ملامح الآن بعدما كَبُر.

نجحت أميرة في التغيير من نفسها ومن طباعها لأجلي كي تُرضيني لكنني فشلتُ تمامًا في التغييرِ من نفسي لأجلها، وأبى الحُب أن ينبت من قلب المودة والرحمة بيننا، واتسعت الفجوة أكثر، وازدادت المسافة مسافات وتضاعفت الخُطى، فلا أصل إليها ولا تصل إليّ والرباط الوحيد بيننا «**حمزة**».

تقتلني ليلى عندما تبتعد وتتركني لذكرياتي معها، تقتلني عندما تتجاهلني في حياتها، تقتلني آلاف المرات عندما أظن أنها ليست «**لي**» وكل ما بها ملك لرجلٍ آخر، له الحق وكل الحق في رؤيتها وقتما وكيفما يشاء، فلست بالملاك الذي يركض وراء قلب فقط، ولا بالرجيم الذي يركض وراء جسد فقط، وإني أردتها بكل ما بها من قلب وجسد.. لكنهما ليسا «**لي**»، وكأنها ليست «**لي حبيبة**».

استقالت ليلى تمامًا من العمل، حتى استقالتها كانت بالهاتف ولم تكلف حتى نفسها أن تأتي المؤسسة، إلى هذا الحد لم ترغب برؤيتي؟ إلى هذا قد تمكن عامر من جعلها أن تنساني؟ إلى هذا الحد يسير أمر الفراق عليها؟

وبرغم كل هذا.. لكنني في بعض الأوقات أقدم لها الأعذار والمبررات التي جعلتها تفعل هذا وترتكب جرائم البُعد في حق قلوبنا.. ربما عامر منعها وأمرها بالاستقالة من العمل، أو رُبما قد مرضت أمها وأرادت أن تظل جانبها دومًا، أو ربما شيء ثالث لا أعلمه.. ربما وربما ولكن أين الحقيقة؟

رأيتها تقترب وكأنها تُريد أن تخبرني بشيء ولا تريد في الوقت نفسه.. وسألتها:

ـ خير يا أميرة.. مالك؟

قالت بشيء من الألم: ليلى بُكرة هتعمل عملية قلب مفتوح.. ادعي لها لأنك أكتر واحد هيكون صادق في دعائه ليها..

انخلع قلبي: مين قالك الكلام دا؟

ـ بالرغم إنك الفترة الأخيرة ملتزم جدا ومتواجد على طول في البيت لكن دايمًا بحس إنك معانا ومش معانا.. جسم بس من غير روح.. اتصلت بليلى أسألها إيه اللي عملته عشان تخليك تحبها بالشكل دا وردت عليا والدتها وبلغتني الخبر.

علمت حينها أن بُعد ليلى واستقالتها من العمل بالمؤسسة لم يكن بإرادتها بل مرضها الذي دخل بيننا وكأن الأمر كان ينقصه هو الآخر، ولا أعرف كيف أعيش القادم من عمري دونها؟ ولو كان بيدي أن أمنحها عمري كله ما تأخرت لحظة، والشيء الوحيد الذي كان يُصبرني على بعادنا هو «**أن تكون بخير**»، فلا شيء أصعب على أي إنسان من شعوره بالعجز عندما يعلم أن نصفه الآخر يتألم بعيدًا عنه من مرض لعين ولا يمكنه الذهاب إليه، وكنت أنا بالعجزِ نفسه..

فكرت في طريقة أتمكن بها من الوصول إليها، صوت حركة عقارب الساعة أمامي يُمزقني، أثق أنها الآن بحاجة إليّ أكثر من أي شخص آخر، لكن الآخرين من يحق لهم الاطمئنان عليها وأنا المحكوم عليه بالموت ألف مرة من القلق عليها، تُراقبني أميرة من مكانها، تُكتفني بمراقبتها، وأهل حبيبتي حتمًا لن

يسمحوا بزيارتي لها، وكأن كل العالم لأول مرة في تاريخهم البشري يتحدون جميعهم بالوقوف بيني أنا وليلى.

لا أعرف كيف يهنأ البشر بنومهم تلك الليلة وليلى تتألم على فراش المرض بين يدي الرحمن؟ وآخرون يُحضّرون غرفة العمليات لأجلها صباحًا كي يعبثوا بقلبها وأنا به، وبقيت طوال الليل أصلي لأجلها وأدعو لها، فما أصدق من دعاء حبيب لحبيبه عن ظهر الغيب، وبالدعاء وحده يمكننا أن نرد القدر.!

ونذرت لله لو نجحت العملية وكُتب لحبيبتي عمرًا آخر سوف أختفي تمامًا من حياتها وسأتركها لعامر وابنتها وكأنني لم أكن من الأساس ولن نتقابل يومًا، ويكفيني تمامًا أن أعلم أنها بخير.

ـ يا رب اشف عن ليلى وقومها بالسلامة ووعد وعهد عليّا هبعد عنها وهطلع من حياتها ومش هخليها تشوفني تاني أبدًا..

غفلت عيني وأنا على سجادة الصلاة، واستيقظت على رنين هاتفي. أنها نور تُخبرني بما قد علمته من أميرة، وأن ليلى ستدخل غُرفة العمليات بعد قليل، وقالت بصوت قلق على صديقة عُمرها:

ـ أحنا رايحين نزور ليلى ونطمن عليها لو حابب تيجي معانا؟؟

وأخيرًا وجدت طريقة شرعية من خلال نور التي منحتني فرصة من ذهب تُمكنني بها من زيارة ليلى بصفتي زميل عمل، وسأطمئن عليها عن قُرب. ولكن عيني لازالت تنظر للساعة ولساني يدعو وقلبي يبكي.. فمتى ينتهي هذا الكابوس وتُشفى الحبيبة؟

دخلت ليلى غُرفة العمليات قبل وصولنا، صالة الاستقبال الكبيرة مُزدحمة بأهلها بينما تجلس أمها على مقعد جانبي تقرأ القرآن بدموع عينيها ويقف عامر هناك على مرمى البصر مع ابنته الصغيرة، وتوزعوا الزملاء على باقي المقاعد، وكنت خلف هذا المشهد أقف وراء الستار، أتطلع برجاء للباب الكبير الذي يحجب بيني وبينها.. عله يُفتح ونطمأن!!

الوقت بطيء جدًا ودقات قلبي سريعة جدًا جدًا هذا الصباح، وفجأة خرجت من غُرفة العمليات مُمرضة على ثوبها الأبيض قطرات من الدماء، والتف حولها الجميع يسألونها بنبرات مُختلفة عن حال ليلى وقالت بقلقٍ:

ـ أدعولها!!

ارتفعت الأصوات بالدعاء والرجاء، وكنت قد فقدت الأمل بداخلي بأن تعود ليلى كما كانت بين البشر، تقف الحبيبة على حافة الموت بمفردها، لن أحتمل تفكيري وخيالاتي المُفزعة، وكأن الموت عامر آخر، لكنه يأتيني يقين ليخبرني أن القلب الذي يسكنه كل هذا الحُب، يستحيل أن يتوقف، يُخبرني يقيني أن كل ما حدث بيننا يستحيل وأن ينتهي بهذه النهاية المؤلمة، يخبرني اليقين أن الحكاية لم تنتهِ بعد ولن، فلا حياة «**لي**» دون «**الحبيبة**».

وبعد قليل.. خرج الجراح وكبير الأطباء وفعلنا معه ما فعلنا مع الممرضة قبله وسألناه بنبرة أشد ألمًا ويأسًا عن حال الحبيبة:

ـ اطمأنوا الحمد لله.. العملية نجحت وليلى بخير!!

وبعد ساعة أخرى.. خرجت ليلى على فراشها المُتحرك وحولها مُمرضتين يسيران بها نحو غُرفتها، ورأيتها فاقدة الوعي مُغمضة العينين..

رأيت حبيبتي بلا حول ولا قوة، كملاك نائم ضعيف، لم أقدر على الاقتراب منها وأضمها إليّ وأخبرها «**حمد الله على سلامتك يا حبيبة**»، لكنني بقيت أتابع الموقف من بعيد، وكأن الزمان يُعاقبنا وجلاده لا يرحم قلوب قد عشقت بصدق.

أخبرتنا مُمرضة أخرى:

ـ ليلى فاقت من البنج وطلبت تشوف واحد فيكم اسمه عامر..

وفي هذه اللحظة علمت أن دور البطولة في قصتي مع ليلى انتهى وكل المواقف التي جمعتنا والأماكن والأحاديث التي تبادلناها ذات يوم من بداية تعارفنا حينما ابتسمت لي الحياة وفتحت ذراعيها وحتى صرنا جسدًا واحدًا إلى هذه اللحظة التي تصفعني بها الحياة وتدير ظهرها عني.

دخل عامر باب الغُرفة الصغير وخرجت أنا من باب المُستشفى الكبير. انتهت الحكاية ولم تنتهِ، ربما يكتب القدر سطور أخرى مع الحبيبة وربما لا، لكنهما صوتان بداخلي، أحدهم يُخبرني أن روايتي مع الحبيبة انتهت فصولها، والآخر يُخبرني أن هُناك جُزء ثاني لروايتنا ومن المُستحيل أن تقف الأحداث عند هذا الحد ولن نهون على الزمان أبدًا أن يُعاملنا بكل تلك القسوة وحتمًا ستجمعنا صُدف أخرى بفصول رواية أخرى، لكن ليس الآن.. رُبما بعد!!

أيادي كثيرة تعبث بقلبي الصغير، لكنهم مهما فعلوا لن يتمكنوا من نزع حبه أبدًا، أدهم «**بي**» وإن كان ليس «**لي**».. وفُتح الباب ليعلن عن وجه عامر، حضر سريعًا كما طلبت من المُمرضة، أخذ كل خطواته نحوي بخطوة واحدة، جلس جانبي يُقبل يدي ويمرر يده على شعري، يبكي عليّ وكنت أقل من أي دمعة تسقط منه، استصغرت نفسي كثيرًا أمام حبه الكبير، فلم يكن يومًا الحب بأيدينا، ولو كان.. لأحببت عامرًا!!

ـ حمدلله على سلامتك يا ليلى.

ـ الله يسلمك يا عامر..

ـ الدكتور طمننا الحمد لله وكام يوم ونخرج من هنا على بيتنا..

سأعود إلى السجن مجددًا، وإني لم أخلق يوما له، لكنّي فكرت وقررت بشيء آخر ليس وقته الحديث به وقال عامر بألمٍ: لسه زعلانه مني؟

ابتسمت: مستحيل أزعل منك..

اعترض كلامي: لكن أنتِ لسه بتحبيه..

ـ ومش معنى كدا إني بكرهك..

ـ اشمعنى هو يا ليلى؟ إيه اللي في أدهم مش موجود فيّا؟

عجزت عن الرد على سؤاله هذا، لأنني عن نفسي لم أعرف الإجابة في الحقيقة، فهناك علامات استفهام كثيرة تظهر بوضوح في حياتنا، ليست لها أي إجابة، لأنه في الوقت الذي سنصل به إلى إجابة سنفقد جزء كبير من المغزى خلف الأحداث، وسينعدم إحساسنا بالحالة تدريجيًا، فالأجمل أن تظل علامات الاستفهام كما هي دون أي محاولة للإجابة!!

ـ أنا ظلمتك معايا زمان وكنت السبب في أني ضيّعت نفسي من قلبك ببُعدي وانشغالي عنك.. قتلت رغبتك ناحيتي مع الوقت.. أنا غبي يا ليلى وكل راجل بيعامل مراته كدا زي ما كُنت بعاملك أغبى ما يكون.. ومش عايز أظلمك تاني معايا.. اختاري يا ليلى ومش هناقشك في اختيارك ولا هزعل منك على قد ما زعلان من نفسي وعلى نفسي.. اختاري يا ليلى أنا ولا أدهم؟

قلت بيقينٍ دون تردد أو حتى لحظة تفكير: أنتَ يا عامر!!

اخترت عامر لأنه فرصتي الوحيدة، أما أدهم فكانت فرصته الوحيدة مع زوجته وابنه، فلم يعد بوسعي أن أظلِم أو أُظلم، لم يعد بوسعي أن أعيش دور الضحية وإن كنت بالفعل هذه ويشنقني القدر بحباله مرات ومرات.

ازدحمت الغرفة على آخرها من وجوه وأجساد مُتباينة الأطوال والأحجام، اجتمعوا للاطمئنان عليّ، ورأيتهم جميعًا طُغاة، حكموا على قلبي وقلب الحبيب بالفراق، وكأنهم شركاء في تعاستنا.. فلم يكن البشر يوما معنا.

رأيت أمي تقرأ القرآن، وأبي يقف في المنتصف يُمسك بيد أخي ويتركني، وحسين يلعب في الشارع الكبير، وأبيه يقف في محل البقالة يبيع حلوى العسلية، وأميرة تُنظف البيت، وفريدة وحمزة يلعبان بالدُمية والكرة، وسهير تقرأ آخر جواب وتنتظر، وأدهم وحيدًا على النيل، وكنت تلك النجمة الصغيرة التي تطل عليه من السماء البعيدة.

قائمة طويلة من الأدوية والممنوعات كتبها الطبيب عند خروجي من المُستشفى، وعند أول سلة قمامة ألقيت بكل ما كتب، فلا حياة بالأدوية

ولا حياة بسجن حريتي وراء أسوار المرض.

اتصل بي الدكتور هاشم ليعرف قراري النهائي بشأنِ السفر، وكنت قد عدلت عن رفضي.. وقلت: موافقة على المنحة والسفر!!

سمعني عامر وقال: بتهربي يا ليلى؟

أجاب صوت داخلي: أزاي أهرب منه وهو ساكن جوايا وأجبت بصوتٍ مسموع:

ـ محتاجة أكون وحدي في مكان معرفش فيه حد.

ـ هترجعيلي يا ليلى..

ـ هرجعلك لو لقيتك مستني.

الصُدفة الأخيرة.

دعتني نور كي أشاركهم حلمهم وأشهد على بداية مرحلة جديدة في عالم التعليم تبدأ من هنا، من المدرسة الحلم، مدرسة للطالب وللمعلم، مدرسة للحاضر والمستقبل، مدرسة لأجيال قادرين على بناء أمة، مدرسة قوامها الضمير.

قصّ وزير التربية والتعليم الجديد الشريط، وبجانبي عامر وفريدة ورأيت أمامي في الصف المُقابل أدهم وأميرة وحمزة، دخلنا باب المدرسة الكبير، وتفرق الجميع.. كل يسير في اتجاهات مُختلفة في أبنية المدرسة وفصولها وغرف أنشطتها ومكتبتها الكبيرة.. وتاهت الأجساد جميعها!!

توقفت عند حجرة الموسيقى، تأملت ما بها، وشردت بعيدًا حيث مدرستي وزميلاتي وأول صدفة وموقف غيّر مسار حياتي، وأتى صوته بأذني واضحًا، عدلت موضع نظارتي على عيني بعدما عُدت إليها مُجددًا، أستوضح بها رؤية الأشياء المُعتمة والحياة الباهتة، ووجدته يمدّ يده بالسلام:

- «**أزيك يا أستاذة ليلى**»، وقلت: «**أزيك يا أستاذ أدهم**».

وكان على وجه كل منا بسمة ودهشة على كل ما مضى وكان، وعلى ما أصبحنا عليه، قصيرة بلا شك تلك الأيام، وكأن التاريخ يعشق العودة للبدايات، علمني بالأمس كيف أنزع الفاصل بيننا وأناديه باسمه دون ألقاب، والآن عُدت لأناديه بالأستاذ وكأنه لم يكن يومًا «**لي حبيب**»..

ركبت الطائرة، وتهيأ لي صورة أدهم مرة على زجاج نافذة الطائرة، ومرة على سُحب السماء، ومرة في وجه الرجل الذي يجاورني المقعد، فلا زال يُكبلني بحبه، وفتحت تلك الصورة التي لازالت تنبض بهاتفي، للمسة يدانا عندما كانت في لحظة ما بيوم ما في موقف ما من داخل عربته، وكأن الصورة تُخبرني أنها بحاجة لاكتمالها بوجوهنا وباقي تفاصيل أجسادنا.. لا الأيدي فقط!!

حلقت بعيدًا عن عالم البشر الذين أعرفهم، نحو عالم جديد لا أعرف عنه شيئا، ولا أعرف شخوصه، بلا زوج أو أهل أو حبيب، وأردت الحرية الكاملة لقلبٍ وظيفة نبضاته الحياة فقط لا الحب، ففي الحب بعض من العذاب بل وكُله.

وضعت قدمي على أرض جديدة، حاملة بيدي حقائبي حيث سكن جديد، تركت به كل أشيائي، واستعنت بلحظات من الحياة والجنون، أصرخ بيدي لا بيد الزمن، جريت على جانب الطريق الجديد والبحر الجديد يجاورني، أجري وأجري حتى عانقت السماء كهذا العصفور الذي أردت له الحياة يومًا، عندما فتحت له باب الحُرية دون قيود أبي، أتسابق مع الريح، وكأنني ولدت بجناحين وأمتلك القدرة على الطيران، ووقفت على طرف الكرة الأرضية وابتسمت للعالم وشحنت نفسي بطاقات إيجابية ثم عُدت للجري مُجددًا بسرعة أكبر..

وها أنا أحلق بعيدًا عن القفص،،.

ما بعد الصُدف

نذر أدهم بأن يبتعد عن ليلى في مقابل أن تُشفى، ويُكتب لها العمر الطويل، واختارت ليلى السفر والغربة كي تهرب منه، أراد لها أن تكون بخير، وأرادت له السعادة مع زوجته، عاد للكتابة إليها وانهماكه التام في العمل التطوعي والخيري، وعادت لطموحاتها ودراساتها واختلافها عن الأخريات، وتباعدت الأجساد، لكن الأرواح لا زالت موصولة ومشاعرهما لم تنقطع بعد،،.

ولازالت في الحكاية صُدف.. لم تنتهِ.

من الوهلة الأولى.. يسرقون قلوبنا بنظرة منهم، فنرى بهم وفيهم كل البشر، وتذهب إليهم مشاعرنا رُغمًا عنا، وتبتسم الحياة وتُزهر الورود في حدائق أرواحنا، ونسمع في همسهم دفء أنفاسنا، ويصير حديثنا إليهم كحروف منقوشة على نبضهم، فنحيا حالة فريدة من نوعها؛ لها إحساس خاص لنا ومذاق خاص لهم، ونفتح أيدينا ونعد على أصابعنا «**فأولًا.. وثانيًا.. وعاشرًا**» هُم أحبابنا، وبعد مضي المواقف والصُدف، واحدة تلو الأخرى، نعود إلى نُقطة البداية من جديد، ونعود كما كُنا أغرابًا، لا يعلم كُلٌ منّا عن الآخر شيئًا، وترحل أرواح الأشياء بعيدًا، ونرى كل الأشخاص بملامح مُتشابهة، وتصبح كُل التفاصيل من حولنا ملولة مُكررة، ونتساءل: هل هذا كان اختبار من الخالق؟ أم عقاب؟ أم شيء آخر يجمع بين هذا وذاك.. اسمه القدر؟

ياسمين خريد